

ناتاليا غنزبورغ

الشعر والمجتمع

بقلم عيسى الناعوري

* * *

السيدة ناتاليا غنزبورغ، اديبة إيطالية ذات شهرة واسعة، فهي من اكبر الروائيين الايطاليين المعاصرين ، برواياتها العديدة التي من اشهرها : (جميع امسائنا ــ الطريق المؤدية الى المدينة ــ لقد كان كذلك ــ فالنتينو ــ اصوات المساء ــ القاموس العائلي) وغيرها مما ترجم الى عدد من اللغات الغربية ، ولقي اصداء كبيرة على اقلام النقاد وفي كبريات الصحف الايطالية . وهي الان في الثمانين من عمرها ، وتقيم في روما .

في عدد جريدة « كوريري ديلا سيرا » الميلانية الصادر يوم الثلاثاء الثاني من تشرين الاول ١٩٧٣ ، وعلى الصفحة الثالثة من الجريدة ــ وهي الصفحة الادبية في الصحف الايطالية اليومية ــ كتبت السيدة غنزبورغ مقالا في ثلاثة اعمدة طويلة بعنوان « المجتمع والشعر » ، اثار لغطا كثيرا في الاوساط الادبية ، وتذمرا واحتجاجات من قبل الشعراء بشكل خاص ، لان المقال كان اكثر من صفعة لهم وللشعر عامة . وقد رايت ان انقل افكاره هنا ، مع بعض التعليقات العابرة ، للربط بين فقراته واجزائه ، لما اعتقده من رغبة الشعراء عندنا في معرفة ما يقال في الشعر في الغرب اليوم .

تستهل الكاتبة المقال بقولها :

« نحن اليوم نتجادل ونكتب كثيرا جدا حول الشعر ، بمعناه المطلق ، اي باعتبار ان الشعر هو كل صيغة قصصية او تعبيرية خيالية : نتجادل ونكتب لكي نسأل انفسنا : ما هي واجبات الشعراء ومسؤولياتهم في المجتمع الحاضر ؟ وماذا كان الشعراء ما يزالون ضروريين في المجتمع الحالي ، أم هم فائضون عن الحاجة ؟ ولكي نتساءل كذلك عما اذا كان الشعر ما يزال اليوم حيا ، أم انه مات ؟ وما اذا كان حقا ما يقوله الكثيرون من ان المستقبل سيستغني عن الشعر استغناء تاما ؟»

وتضيف الكاتبة قائلة :

« وفي حين نكتب هذه الكلمة ، ونتطق بها ، انتشر حول كلمة (الشعر) نوع من التعب والخجل ، بحيث اصبحنا كلما نطقنا بها ينبغي ان نغالب في انفسنا الخشية والخوف من السخرية ، كأنما تذكرنا هذه الكلمة بشيء مضى زمانه ، او شيء مهلهل او شيء يثير فينا التقزز والغثيان لكراهية رائحته وطول استعماله . وكثيرة هي الكلمات التي نحس بانه ينبغي ان نفكر في معناها الحقيقي ، وننزع عنها في كل مرة طلاء الزيف الذي يغطيها . ومن هذه الكلمات لفظة « الشعر ».

وتمضي الكاتبة في حملتها العنيفة على الشعر والشعراء ، فتقول :

« بالنسبة الى الشعر ، جميع الافكار التي تنمو حول نفعه او عدم نفعه ، نشأت من فكرة خاطئة هي : ان الشعر يشبه اشياء اخرى نافعة او غير نافعة ، في حين ان الشعر ، في الواقع ، ليس شيئا نافعا او غير نافع ، وليس له غاية واضحة مرئية ، ولا يتشابه مع اي شيء آخر ».

ولكن الكاتبة لا تترك الامر دون تفسير من جانبها ، ولذلك تستعرض الاراء والاقوال المختلفة في الشعر ، فتقول بين السخرية والجد :

« يقول البعض ان غاية الشعر هي منح الجمال والسعادة للناس ، وتجميل الدنيا وتعزيتها ، ولهذا كان من الواجب على المجتمع العادل ان يدافع عن حرية الشعراء ويحمي امتيازاتهم ، مثلما يحمي متنزها وطنيا من غزوة الاسمنت . ويقول آخرون ان غاية الشعر هي انارة الطريق امام الناس لكي يعرفوا عللهم وذنوبهم ، اذ يبين وسائل العلاج والدواء ، وطرق الحصول عليها . فالانسانية تنشد العون ، ومن حقها ان تنشده في كل مكان . وما دام الشعراء يملكون امتياز الخلق والابداع ، فلا بد من ان يدفعوا ثمن هذا الامتياز ، بان يكونوا نافعين . ان مثل هذا الامتياز لا يعطيهم الحق في الحرية ، او في اية امتيازات اخرى ، فليس من الضروري توفير الحماية لهم ، ولكن ينبغي الانتفاع بهم ».

سخرية مؤلمة هذه دون ريب . ولكن الكاتبة الناقمة على الشعر والشعراء لا تكتفي بها ، بل تمضي في تهكمها ، فتقول :

« ولكن اذا كان الشعر متنزها وطنيا ، يذهب المرء ليرى فيه الينابيع ، والالعاب المائية ، والازهار ، والحملان ، والطواويس ، فعندئذ ينتج عن هذا مباشرة انه لا جدوى له في ازمنة الكوارث والنكبات ، كالزمن الذي نعيش فيه الان . فالواقع انه عندما يكون المرء مهموما وكئيبا نتيجة

لمصائب حقيقية وكبيرة ، لا يجد لديه رغبة في التنزه في الحدائق العامة ، ولا تجد أنظاره المظلمة راحة في رؤية الينابيع او الازهار . فاذا نظرنا الى الشعر باعتباره نوعا او مكانا لاضاعة الوقت ، او ضربا من الترف او التسلية، تجلى لنا عندئذ بكل نقصه وعدم كفايته ، فعند المصائب الحقيقية والكبيرة لا يرغب الانسان في اضاعة الوقت، ولا يجد السلام من اية جهة ».

وتمضي الكاتبة في حملتها التهكمية اللاذعة فتقول:

« أما اذا كانت وظيفة الشعر ان يداوي امراضنا، او ان يحملنا مباشرة ، مثلما يحملنا القطار او السيارة ، على طرق صحيحة وجيدة من طرق المعرفة والصحة ، فلا بد لنا عندئذ من ان نقول انه في هذا اشد نقصا وعدم كفاية : ان الشعر لا يقدم الاقتراحات الواضحة الا نادرا جدا ، ولا تكون هذه الاقتراحات مباشرة ابدا ، ولا ذات قيمة عملية . انه لا ينقذنا من الخطأ ، ولا يشفي جراحنا ولا يسمو بذنوبنا ، ولا يقدم اية تعليمات محددة وذات قيمة حول الطرق اللازمة للتصرف في الكوارث والنكبات، الفردية منها والعالمية على السواء : فسواء على الصعيد الانساني ، ام الطبي ، ام الصيدلي ، ام السياسي ، ام الاقتصادي ، ام الجغرافي ، ام السياحي ، ليس في وسع الشعر ان يقدم للناس شيئا على الاطلاق » .

وتصل الكاتبة من ذلك كله الى النتيجة التالية :

« ولهذا كان من الخطأ ان نتصور الشعراء مثل انواع من النباتات او الطيور الثمينة او السريعة التلف ، والتي يبدو من المناسب تربيتها في حاضنات او اوعية ، مع ضروب من المعاملات الخاصة ، والتدفئة الخفية، والعناية اليقظة ، والاهتمام الحذر المتحوط . ومن الخطأ كذلك ان نتصورهم انواعا من النباتات ، او الحيوانات البيتية التي ننتظر منها منافع مباشرة وملموسة ، كالطحين ، والحليب ، والبيض ، والصوف ، او نتخيلهم كالمصابيح، او الدهن ، او كالامشاط ، او الادوية والعقاقير المضادة للالتهابات ، او كوسائل المواصلات . ان الشعراء ليسوا من هذا كله في شيء.

وكأنما تتلذذ الكاتبة بسخريتها هذه ، وبمقارنتها بين الشعراء والحبوب ، او الدجاج ، والبقر ، والنعاج وغيرها من البهائم التي تفيد في الحياة او لا تفيد ، ولذلك نراها تستمر في التهكم الى حد الاشباع، بالنسبة اليها ، والى حد الاملال، بالنسبة الى القارىء. فالقارىء انما يستمرىء النكتة البارعة تجيء سريعة خاطفة ، ولكنه ينفر منها كارها اذا اشبعت ومغطت ، كما فعلت السيدة غنزبورغ في حملتها هذه الطويلة العريضة على الشعر والشعراء .

ومهما يكن من أمر ، فنحن سنمضي معها لنرى الى اين سيصل بها التهكم والسخرية .

بعد كل ما تقدم تمضي السيدة غنزبورغ فتقول :

« هوية النفع وعدم النفع يستطيع المجتمع ان يتطلبها ، او يمنحها ، لدى الطبقات الاجتماعية . والشعراء لا يؤلفون طبقة اجتماعية . وهم في بعض الاحيان يكسبون المال من اعمالهم الشعرية ، وفي احيان اخرى لا يكسبون شيئا ، ولكي يعيشوا عليهم ان ينصرفوا الى نشاطات او مهن غريبة بالنسبة الى طبيعتهم كشعراء ، وبعيدة عن الشعر . وعلى كل حال ، فان ما يصيبهم موكول الى الصدفة : فهو من حسن الحظ او من سوئه ، ولا يعني شيئا بالنسبة الى عملهم الشعري وطبيعتهم . وسواء أنال الشعراء شيئا من المال أم لم ينالوا ، فليس الشعر مهنة لهم ، وليس هو بالخدمة الاجتماعية او العامة ، بالنسبة الى المجتمع . وليس من السهل تحديده ، الا انه ، بكل تأكيد ، ليس خدمة اجتماعية او عامة ».

وعلى هذه النقطة تركز الكاتبة ، فتمضي في تأكيداتها السابقة قائلة :

« في الحقيقة انه ليس من يدري ، على وجه التحديد ، من هم الشعراء . ومن السذاجة المفرطة ان يحدد «الشعراء» بانهم الذين يقدمون اعمالا ذات صفة شعرية . وليس فقط من السذاجة المفرطة ، بل انه لمن الزيف كذلك . واصح من ذلك ان الشعر يبدو كحالة خاصة من حالات الروح ، ليست نادرة ولا ثمينة ، بمعنى انها قد تكمن في اشخاص ابعد ما يكونون عن التوقع . انه حالة من حالات الروح ينشأ عنها احيانا بعض الاعمال الشعرية ، واحيانا لا ينشأ عنها ، ولن ينشأ شيء على الاطلاق . فاذا لم يكن في الحسبان ان الشعر يمكن ان يكون حالة خاصة من حالات الروح ، لا ينشأ عنها احيانا ـ بل غالبا ـ ولن ينشأ عنها شيء ، واذا لم يكن في الحسبان ان الشعراء لا يدري احد من هم ، ولا اين هم ، فكل جدال حول الشعر سيظل خاطئا زائفا . وليس هذا فقط ، بل ان كل جدال حول الحالة الانسانية يظل خاطئا وزائفا » .

ويطول الحديث بالكاتبة على هذه الوتيرة ، وفيه الكثير من تكرار الصور والافكار بتعمد واصرار ، امعانا منها في الحملة على الشعر والشعراء . وتصل في النتيجة الى القرار التالي :

« عندما نخشى ان يموت الشعر ، فلسنا نخشى ان يموت شيء كنا به اوفر غنى ، او اكثر سعادة، او افضل حالا ... »

وتضيف بعد ذلك اسماء الشعراء الايطاليين الذين تؤمن بانهم « الشعراء الحقيقيون الكبار في زماننا »، وهم سبعة من الشعراء ، بعضهم موتى وبعضهم احياء . وتقول : « امام هؤلاء وحدهم يخيل الي انني في حضرة العظمة . ولطالما تساءلت ان كانت في اعمالهم الادبية دلالة مشتركة ، غير انني لم اجد شيئا من ذلك .»

ولكن السبعة الذين ترى فيهم ناتاليا غنزبورغ امثلة العظمة الحقة من الشعراء الايطاليين ، ليسوا محل اجماع من اهل الادب في ايطاليا ، فبعضهم ليسوا ، في الحقيقة ، من الشعراء الكبار حقا ، ولكن بعضهم يمثلون

قمة الشعر الايطالي ، ولهم مكانتهم في الغرب كله .

على كل حال ، هذه خلاصة مقال الكاتبة الروائية السيدة ناتاليا غنزبورغ في عدد جريدة (كوريري ديلا سيرا) الصادر في ١٩٧٣/١٠/٢ . ولست ادري ان كان احد من الشعراء قد رد عليها ام لا ، فقد عدت بعد ذلك من ايطاليا ، وانقطعت عني الصحف الايطالية ، ومن ضمنها « الكوريري » . ولكنني أتساءل : هل كانت الكاتبة الكبيرة جادة في ما كتبته عن الشعر والشعراء في مقالها هذا ؟ واذا كانت جادة فعلا ، فماذا في مقالها التهكمي هذا مما لا ينطبق على الادب برمته : الشعر منه والنثر على السواء ، والقصة ، والرواية ، والنقد الادبي ، والبحث منه معا ؟ واذا كان الشعر قد اصبح تافها الى هذا الحد الذي انزلته اليه السيدة غنزبورغ ، فهل نزلت كذلك الى الدرك نفسه الوان الادب وفنونه الاخرى ؟ واذا كان الامر كذلك ، فما هو اذن تقدير الروايات العديدة ، والاعمال المسرحية ، التي كتبتها السيدة غنزبورغ نفسها ، والتي اشتهرت بها كما اشتهر الشعراء الكبار بشعرهم ؟ وهل يستطيع المستقبل ان يستغني عن الادب بمجموعه ، كما تقول السيدة انه سيستغني عن الشعر استغناء تاما ؟

على ان مقال السيدة غنزبورغ له في الحقيقة مبرراته : فالواقع ان الشعر اليوم ، في العالم كله ، قد فقد الكثير من مواقعه ـ التي كانت من قبل منيعة حصينة ، والتي كان فيها ارقى الفنون كلها ـ واصبح مثار تساؤلات كثيرة : تساؤلات حول مفاهيمه الحالية ، ومعناه ، ومراميه ، ومذاهبه التي لم يعد يحصرها عد ، واساليبه ، ووسائله وادواته الفنية ، ومن وراء ذلك كله حول نفعه او عدم نفعه للمجتمع .

وفي ندوة ادبية عقدتها السيدة الشاعرة الايطالية الصديقة ، لينا انجوليتي ، في منزلها في ميلانو في ١٩٧٣/٩/٢٩ ، ودعت اليها ثمانية من اصدقائها الادباء والاذيبات لتقدمني اليهم ، دار حديث طويل حول الشعر ومفهومه الحاضر . لقد اردت ان اعرف رأيهم في الشعر . فسألتهم عما يفهمونه بالشعر اليوم . ودار نقاش استغرق اكثر من ساعة ، وتفرع ، وتنوع ، وخرجنا منه جميعا متشككين في قيمة الشعر الحاضر ، ومتفرقين في الراي حول مفاهيمه واساليبه . ولكن الاجماع كان على ان الشعر ، بكثرة مدارسه وتغيراته ، قد اصبح قليل الاهمية في المجتمع المعاصر ، وان الشعراء الحقيقيين الذين يقرأ لهم القراء باهتمام ، اصبحوا نادرين في العالم كله .

الشعر اليوم في الغرب اصبح ضربا من الغموض والتعقيد ، ومن الرموز التي لا ندري ان كان الشعراء انفسهم يفهمونها ، والتي قد تعني اشياء كثيرة دون ان تعني شيئا على الاطلاق . لقد اصبح الشاعر يكتب لنفسه لا للقراء ، ولكنه يصر على انه يكتب للقراء ... وما دام الشاعر يعيش عالمه وحده ، ويكتب الشعر لنفسه ، فما حاجة القراء به وبشعره ؟

اذكر بهذه المناسبة ان الشاعر المرحوم صلاح الاسير كان قد نشر في مجلة « الاديب » عام ١٩٤٠ ـ فيما اذكر ـ ابياتا رمزية يقول فيها :

تقول : ترى نلتقي على خاطر ازرق
شظاياه غور القرار من النغم المهرق

وحاولت كثيرا ، وحاولت امدا طويلا ، ان افهم هذين البيتين ، ولكن ذلك لم يكن ممكنا . وشاءت الصدف ان التقي بصلاح الاسير في اروقة فندق بلودان الكبير ، ايام انعقاد مؤتمر الادباء العرب الثاني هناك ، عام ١٩٥٦ ـ اي بعد ظهور تلك الابيات الاسيرية في الاديب بستة عشر عاما ـ فامسكت بتلابيب صلاح وقلت له امام المرحوم الدكتور سيف الدين زيد الكيلاني ، والشاعر ابي سلمى : « لقد كنت ابحث عنك منذ ستة عشر عاما لكي تفسر لي بعض شعرك » . ثم اسمعته البيتين ، وقلت : « ماذا تعني « بخاطرك الازرق » ، الذي له « شظايا » والذي « شظاياه غور القرار من نغم مهرق » ؟

فضحك صلاح ، وبدلا من الشرح قال : « هذا كان زمان ! ... » فقلت : « او لم تكن تقصد معنى معينا بهذين البيتين ؟ » ولم يقل صلاح شيئا ، بل تركنا نضحك واختفى في الممرات الطويلة ...

هذه الحقيقة تبرر مقال السيدة غنزبورغ الى حد ما ، ولكنها لا تبرر مقارنتها بين الشعر والدقيق ، والبيض ، والحليب ، ، والصوف ، او بين الشعراء والبقر ، او الخراف ، او الدجاج ، او ما الى ذلك . فحين ينزل الشعر الى مثل هذه المقارنة ، ويصبح مثار تساؤل عما اذا كانت له مثل فائدة الطحين والحليب والصوف للمجتمع ، فان المقارنة عندئذ تصبح ضربا من التحقير الذي ينبغي ان يصيب الادب كله ، وليس الشعر وحده ، ومن ذلك جميع اعمال الروائية الايطالية الكبيرة ناتاليا غنزبورغ ، فالادب كله ـ وادبها من ضمنه ـ لا يقدم للمجتمع دقيقا ، ولا حليبا ، ولا بيضا ، ولا صوفا ، كما تقدم البهائم والحبوب .

صحيح ان الشعر كان في زمن ما ارقى الفنون الجميلة كلها ، ثم تخلى عن مكانه هذا في العهد الأخير للرواية والنقد بشكل خاص ، ولكن هذا لا يعني بأية حال ان الشعر قد اصبح تافها ، ويستحق ان يعيش المستقبل من دونه تماما .

على كل حال ، قد لا تكون السيدة غنزبورغ ارادت الحكم باعدام الشعر والشعراء نهائيا . قد تكون ارادت ان تقرع لهم ناقوس الخطر ، وتقول لهم : « هذا مصيركم ومصير الشعر ان ظللتم سائرين في دروب التعقيد والغموض ، والتنطع في الاساليب الشعرية الملتوية النابية عن ذوق المجتمع » .

فاذا كان هذا ما رمت اليه الكاتبة ، فنحن معها الى حد كبير ، دون الدخول في التفاصيل الكثيرة التي دخلت هي فيها بجراة وصراحة كبيرتين .

عمان ـ الاردن

عيسى الناعوزي

طابع العصر

اكظم الغيظ مـا استطعت واقمع   كم مـن الصبر حنظلا اتجرع
اوتهنل عـلي اطفـاء جمـر   بابتسام ؟ ذاك المحـال الممنع
قـد تحلمت حين سلت حليمـا   وترديت غير ثوبـي المرقـع
وتشجعت اخـدع النـاس كيمـا   يجهلوا السر مـن كياني المزعـزع
مسمع معشـري نصائـح حبـر   فيلسوف ، فليت نفسي تسمـع
كاظـم مـر مـا اعانـي وللكبت   ازيـز قلبـي لـه يتقطـع
ولكاس الحياة فـي حلقي المشجوج صـاب مذاقـه ليس يبلـع
احتسيـه ولا افـوه بلفـظ   ولئـن كنت غائيـا اتهـوع
اتسلـى تعلـلا بصبـاح   عن قريب قـد يستهل فيسطـع
يـرسل النـور دافقـا وغـوا   شي الليل فيـه سحائب تتقشع
والليالـي تمـر خلـف الليالـي   وانـا تحتهـا شريـد مضيـع
ارقب الصبح ! خيبتـاه لصاد   ينشد الـري مـن سراب بلقـع
والصباح المنـير يكمـن فـي نفسي ولكـن افر منـه وافـزع
لـم لا اجبـه الاضاليل بالحق   وان ارمض النفـوس واوجـع
لم اطري الوهـاد اجمـل منهـا   ربـوات بزهرهـا تتضوع
لـم اطري اللئيـم اعرف عنـه   كـل خـزي ، لكن لـه اتصنـع
لـم يغدو الرعديد ندبـا لـدي   اخشـى بـلاءه وهـو ضفدع
لـم اطري الشوهاء اخدع منهـا   قلـب ورهـاء بالمدائـح يخـدع
واری الفجوة السحيقة ما بين اعتقا   دي وبـين قولـي فافجـع
اكظم الغيظ ما رايت اخـا الكظم   سنعيـدا بغيظـه حـين يقمـع
ان فـي عمـق غـوره جمـرات   هـو ادرى بنارهـا حين تلـذع
ويوقد العروق فـي الرأس حتى   اوشكت مـن حميمهـا تتصدع
وارتـداد الانفاس في الصدر تهتا   ج كمـوج فـي عيلـم يتدفـع
طابـع العصر ، ويلـه ، جعل النا   س عبيدا كآلـة فـي المصنـع
تخذ الحرص والمـداراة والكبت   قلاعـا تصـد مـا يتوقـع
وراى الكيد والملاجاه والـدس   رماحـا لـدى الغنائـم تشرع
الصريح الصدوق صيـد مبـاح   واللئيـم المحتـال شاك مـدرع
ولقـد تصبـح الذيـول رءوسا   حـين تجثـو لباطش يترفـع
يعتلـي وغدهـا فيصبح نجمـا   ويـذاد الاصيل بغيـا ويمنـع
ولقـد تصبـح الرءوس ذيـولا   اذ تريـح النقـاب لا تتبرقـع
رفعت صوتهـا فلاقت دجـى السجن رهيبـا لانهـا لـم تركـع
فترانـي جرعت صبـري ارتـا   د نجاتـي ، ومـا اراه سينجـع

كلية اللغة العربية ـ الرياض   محمد رجب البيومي

الدكتور طه حسين

بقلم راضي حكيم

* * *



صباح الاحد الموافق ٢٨ من اكتوبر من هذا العام ، وبالتحديد في الساعة السابعة والنصف صباحا ، رحل طه حسين في آخر رحلة له ، والرحلة هذه المرة ليست للراحة والاستجمام في تلك البقعة الجميلة التي اعتاد عميد الادب العربي ان يزورها كل عام ... في ايطاليا .

ولكن الرحلة هذه المرة ، وهي المرة الاخيرة رحلة الى دار الخلود ، التي هي اجمل من اجمل بقعة هنا ... هناك ما لم تره عين وما لم تسمع به اذن ... هناك يستريح استاذنا راحة تامة .. ويستجم استجماما ابديا .. بعد ان ادى دوره العظيم في حياتنا الادبية والثقافية .

رحل طه حسين الى عالم البقاء .. بعد ان قضى بين ظهرانينا في عالم الفناء .. قرابة اربعة وثمانين عاما.. كانت حياته غنية حافلة .. عاشها كلها مناضلا ومجاهدا بالفكر والقلم ... وكانت في جملتها تنبيء بأن صاحبها كان رائدا متميزا .. ومفكرا متفردا ... بل نقول نسيج وحده .

مولده

ولد طه حسين في الرابع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٨٩ بقرية الكيلو والتي تبعد كيلومترا واحدا من مغاغة بمحافظة المنيا بصعيد مصر ... ولعله امتاز بما امتاز به غيره من ابناء الصعيد ... من قوة شكيمة ، وتحمل صعاب ... فكان كالنيل في قوته .. وجريانه .. وتدفقه وكما امد النيل ارض مصر الحبيبة بالماء فبعث فيها الحياة ... كذلك فعل طه حسين ابن النيل فامد ابناء مصر بالكلمة الحرة والفكر الخلاق .. فبعث في حياتهم الخصوبة والتجدد والاثمار ...

ولم يولد طه حسين في قصر من القصور .. ولا هو اكل بملعقة من الذهب ... ولكنه ولد فقيرا .. ولكنه ايضا لم يرض بالفقر .. وحارب الفقر بكل صوره .. فقر الثقافة وفقر المال .. فناضل وجاهد حتى اصبح غير ما كان عليه في حياته الاولى .. ولعله في ذلك قد سلك نفس الطريق الذي سلكه زميل كفاح له هو العقاد ...

وافقد طه حسين بصره في الثامنة من عمره ... وذهب الى كتاب القرية وهناك حفظ القرآن الكريم ...

رحلة الدرس

انتقل الدكتور طه حسين بعد ذلك الى القاهرة وفي عام ١٩٠٢ دخل الازهر الشريف ... وانضم الى حلقات الدرس به ، وكان من اساتذته الشيخ الامام محمد عبده والشيخ سيد المرصفي .. ولقد تأثر بهما ولا سيما باستاذه المرصفي ..

وفي عام ١٩٠٩ ترك الازهر والتحق بالقسم الفرنسي بالجامعة الاهلية (جامعة القاهرة الآن) ، وفي عام ١٩١٣ سافر الى باريس في بعثة للدراسة .. ولكن الحرب نشبت آنذاك مما اضطره للعودة الى مصر ، وبعد ثلاث سنوات اخرى وبالتحديد في عام ١٩١٦ عاد مرة اخرى الى باريس ليستكمل دراسته . فاستكملها في ثلاث سنوات آخر .. وحصل من هناك على درجة الدكتوراه في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

ولا بد من القول بان الدكتور طه حسين قد تأثر في حياته الدراسية الاولى بالشيخ محمد عبده وقاسم امين ولطفي السيد ، استاذ الجيل . ولعل تأثره بهم قد بدا واضحا في حياة طه حسين الفكرية من بعد .. واذا كان في السنين التي قضاها بالازهر قد درس الادب العربي القديم دراسة وافية ، فانه عندما ذهب الى باريس قد استفاد منها طرقا حديثة للمنهج والبحث .. وتأثر بدريكارت وكونت وغيرهما ... وهذه الطرق الحديثة في البحث قد طبقها في دراساته فيما بعد وعلى الاخص في « حديث الاربعاء » و « في الشعر الجاهلي » ...

تلك كانت رحلة الدراسة ، ونمضي لنعرف شيئا عن حياته الزاخرة .

الاستاذ العميد

في عام ١٩٣١ عين الدكتور طه حسين عميدا لكلية الآداب بجامعة القاهرة ... فاهتم بمناهج البحث والدراسة فيها ... وادخل فيها اللغتين اللاتينية واليونانية ، وهاتان اللغتان تدرسان بالكلية منذ ذلك الحين .. ولقد كان للاستاذ الدكتور اهتمام خاص بالادب اليوناني فترجم ناقلا عنه الكثير .. مما لم تكن تعرفه الاوساط الادبية في ذلك الوقت ، ذلك التراث اليوناني المتمثل في اعمال اسخليوس وسوفوكليس ويوربيديز وغيرهم ... هذا التراث الذي لا يمكن لاديب او مثقف ان يكون بدونه .. او بدون دراسته . وكانت الفترة التي قضاها عميدا للكلية على قصرها ذات اثر واضح جاءت بثمار وفيرة فيما بعد .. وما نزال نجني ثمارها ...

الاستاذ الوزير

وفي عام ١٩٥٠ عين الدكتور طه حسين وزيرا للمعارف . وعندما طلبوا اليه ان يقسم اليمين الدستورية قبل ان يزاول عمله بالوزارة .. رفض الا بعد ان يصدر قرار بمجانية التعليم ... ويبدو ان هذا المطلب قد جعل

المسؤولين في ذلك الحين في ورطة ... ولكنهم امام اصراره وعناده ... اصدروا قرارا بمجانية التعليم .. وبعدها مارس الوزير اعماله . وكان من ابرز اعماله هو هذا القرار الذي جعل التعليم كالماء والهواء حقا لكل الناس ... فصار التعليم مجانا لاول مرة في تاريخ مصر الحديث . وبذلك انفتح الباب الموصود امام كثير من ابناء الوطن ممن كان الفقر يحول دون تعلمهم ... ومنذ ذلك الحين أصبح التعليم حقا مباحا لكل قادر عليه بالجهد والعرق ، لا بالجاه والمال ..

ولئن لم يكن لطه حسين غير هذه المأثرة ، لكانت وحدها كافية لاحتلاله المكانة الكبيرة في القلوب والنفوس.

حبه للصحافة

كانت الصحافة احدى الوسائل التي استخدمها طه حسين لكي يبلغ افكاره للناس ... ويعرض عليهم آراءه ... وكان على صلة دائمة بها .. فقد تتلمذ على يد لطفي السيد في جريدة « الجريدة » .. وهو ما يزال بعد طالبا بالازهر عام ١٩٠٧ . وبعدها عمل في جريدة « اللواء » التي راس تحريرها الشيخ عبد العزيز جاويش، ثم واصل الكتابة في جريدة « السفور » ... وصحيفة « السياسة » التي كان هو نفسه واحدا من اسرة تحريرها . وفي عام ١٩٢٦ انتقل الى جريدة « السياسة الاسبوعية » وفي عام ١٩٣٢ راس تحرير جريدة « كوكب الشرق » . وفي عام ١٩٦٠ راس تحرير جريدة « الجمهورية » مع بعض زملاء له .. وظل فيها ما يقرب من اربعة اعوام .

ويتضح من هذا كله ان الدكتور طه حسين كان على صلة دائمة بالصحافة ، يحبها ويهواها ... ويكتب فيها .. ويشارك في تحريرها .. ولم يمتنع عن الكتابة اليها والمشاركة في تحريرها الا في سنوات حياته الاخيرة حينما اعتلت صحته ، ولم تكن تسمح له بتحمل متاعبها ..

ولم يكن هذا غريبا ، فالصحافة هي المنبر الوحيد، الذي يستطيع المرء عن طريقه ان يبلغ افكاره للناس ... كل الناس .

مؤلفاته

للدكتور طه حسين عشرات الكتب في مختلف انواع الثقافة والفكر ، من دراسات وتراجم ونقد وغيره ... ولقد صدرت جميعها فيما بين عامي ١٩١٤ و١٩٦٤ .

من بين ترجماته ترجمات لمسرحيات يونانية .. ومن اهم الدراسات حديث الاربعاء ، في الادب الجاهلي، في ذكرى ابي العلاء . وغير ذلك ودراسته « في الشعر الجاهلي » اثارت حولها وقت صدورها كثيرا من الجدل والحوار ... لانه استخدم فيها منهجا حديثا واثبت ان الشعر الجاهلي بمعظمه منحول ...

ولعل اشهر مؤلفاته كتاب « الايام » الذي صدر في اجزاء ثلاثة ، وهذه الثلاثية هي قصة حياة عميد الادب نفسه ، ولم تكن هذه هي القصة الوحيدة التي كتبها بل كتب ايضا ، شجرة البؤس ، احلام شهرزاد ، المعذبون في الارض ، دعاء الكروان ، الحب الضائع ، على هامش السيرة ، ظهور الاسلام ..

وثمة دراسة هامة اصدرها طه حسين هي: « مستقبل الثقافة في مصر » وهذه الدراسة تبين بوضوح مدى تقدم الثقافة او تأخرها في مصر او لعلها ترمومتر حياتنا الثقافية .

والحق ان كلا من هذه الدراسات او القصص يحتاج الى وقفة خاصة بل وقفات ، نرجو ان نحقق بعضها مستقبلا .

ماذا في كتبه ؟

وكتابات طه حسين تضعه في مصاف الرواد والمفكرين ، في العالم العربي ، بل هو وحيد عصره بلا منازع ... وهذه الكتابات تضعه ايضا جنبا الى جنب مع ادباء عالميين ... هو لا يقل عنهم شيئا ... وهم لا يزيدون عنه شيئا ...

امتازت كتابات طه حسين بين ما امتازت بالتحرر ودعوته الى التفتح ، وربط القديم بالحديث ، فليس ثمة فائدة فيما كتبه الاجداد الا بما يكتبه الاحفاد ، وليس من فائدة فيما يكتبه الاحفاد الا بمزجه بما كتبه الاجداد . فهو لم يترك القديم لقدمه .. ولم يأخذ بالجديد لجدته ، بل يترك ما لا يفيد .. ويأخذ ما يفيد بغض النظر عن كونه قديما او جديدا ..

وبهذا اقام استاذنا جسرا بين القديم والحديث .. وبين الشرق والغرب ، واوجد حوارا بينهما ما يزال قائما حتى اليوم ..

لقد اخذ بيد الكثيرين الى الغرب الحديث بأفكاره وآرائه ... واستطاع ان يحطم حاجز خوفهم من كل جديد ... ويقضي على تخوفهم الذي كاد ان يؤدي بهم الى التزمت او الجمود ... وكانت وسائله الى ذلك هو نقل التراث الغربي ، اليوناني والفرنسي ، واستخدام مناهج حديثة لم تكن معروفة من قبل ..

وبين ما امتازت به كتابات طه حسين الحرية في الراي .. والحرية في التعبير عما يريد كما يريد .. دون قيد .. لقد احب طه حسين حرية المعرفة ، تلك التي - كما يقول هو نفسه - توصل الى السمو في الهدف والنبل في الغاية ، والتي تحقق آمال الناس جميعا فيما يهدفون اليه ، املا يبني ولا يهدم .

هذا قليل من كثير امتازت به كتابات وافكار طه حسين ... وكل ميزة في كتاباته هي الاخرى في حاجة الى وقفة ووقفات .

العميد

عميد الادب العربي وفقيد الامة العربية المغفور له الدكتور طه حسين

عامر محمد بحيري

* * *

هذه ادمعي عليك سجام   يا عميد الهدى .. عليك السلام
وهداك الذي بعثت به الجيل .. شعاع يقوى به الالهام
كنت شمس الضحى .. تفيض على   الكون سناها .. وان حواك الظلام
وحملت الالام .. فوق الثمانين .. وحظ المجاهد .. الالام
ما راى الناس مثل صبرك صبرا   يصدع الراسيات .. فهي حطام
ما راى الناس مثل عزمك عزما   حين يدعوك بالامور اهتمام
ما راى الناس مثل اخذك للخصم .. اذا ثار للعقول احتدام
كنت للفكر ثورة .. يقبس الثوار منها .. وما عليهم ملام
كنت للظامئين مورد فضل   سائغ .. لا يخف عنه الزحام
كنت للكل رائدا .. لا لفرق   دون فرق (١) وانت نعم الامام
يزدهي العلم والثقافة .. في دا   رك .. نورا .. ويبهر الاعلام
نهضة تشمل البلاد .. وفيها   لك من كل جانب .. اسهام
يا عميد البيان .. في كل عصر   لك منا الاعزاز ، والاكرام

نشاطات اخرى

عاش طه حسين حياة زاخرة نشطة مليئة بالعمل والعرق والكفاح ، فالى جانب ما تقلده من مناصب ، الاستاذ والعميد والوزير والصحافي ، نجده يشغل نفسه بالتاليف فيترك عشرات الكتب القيمة في الفكر والثقافة بعد رحيله ...

الى جانب ذلك فقد راس المجمع اللغوي بالقاهرة لمدة عشرين عاما ، وحتى لحظة وفاته ، وكان الى جانب ذلك كله عضوا مؤسسا في المجلس الاعلى للفنون والاداب.

تكريم

الدكتور طه حسين اول اديب في مصر تهديه الدولة جائزتها التقديرية وقلادة النيل . وقبيل رحيله بيومين اهدته الامم المتحدة جائزتها تكريما له على ما اداه من دور في ميدان الحقوق الانسانية ... بيد ان القدر لم يمهله ليتسلمها .. ليس هذا فقط بل ان عددا من الجامعات الاوروبية قد اهدته الدكتوراه الفخرية ..

والواقع ان كل ما قدم للرجل تكريما له قليل اذا قيس بما قدمه للحضارة العربية والانسانية .. ولعل اعظم تكريم يمكن ان نكرمه به هو ان نقرأ كتبه ونفهمها.. وندرس آراءه ونحفظها .. ونتمثل مبادئه ونعيشها .. وستظل كتبه بما حوت .. وستبقى آراءه بما شملت ، نبعا فياضا نستقي منه وتستقي منه اجيال بعدنا ..

ولقد كنت اعرف قبل ان اخط حرفا واحدا ان الرجل عظيم .. اعظم من كل كلام يقال عنه .. وكنت اعرف مسبقا ان الكلام عاجز عن ان يتحدث عن مآثر الرجل وافضاله ...

ولكن لعل هذا يريح النفس اكثر من الصمت .. او لعله لمحة وفاء لاستاذ عظيم .. مع اني اعلم علم اليقين باني مهما كنت وفيا ... فليس في وسعي ان اقدم لاستاذي قليلا من الكثير الذي قدمه ،

وبعد هل مات طه حسين . لا اعتقد . انه لم يمت. انه حي وسيظل حيا بيننا بافكاره ومبادئه ... لقد فاضت روحه الى خالقها .. ولكن روحه ما تزال ايضا فيما كتب من مؤلفات .. وفيما نادى به من مبادىء ... فليس كل الذين يموتون يموتون حقا .. ولكن بعضهم ، وطه حسين واحد منهم ، باق باعماله واثاره ... فان شئتم ان تستمعوا الى صوته اقرءوا كتبه .. وان اردتم ان تعرفوا مبادئه ، ارجعوا اليها ... واذا رغبتم ان تكرموه فعيشوا حياتكم كما ارادكم ان تعيشوها ... وكما عاشها هو ... وقفوا على مبادئه ومثله ففيها خير معين لكم وانتم في رحلة الحياة ..

لقد رحل عنا الدكتور طه حسين بعد ان ادى واجبه نحونا ، بل اكثر .. ولم يبق علينا الا نؤدي واجبنا نحوه.

القاهرة   راضي حكيم

يتسامى لمجدك .. المتنبي   وابن برد ، ويطمح الخيام
فاخرت مصر ، والعروبة جمعا   ء .. باسلوبك الذي لا يرام
اين منه ابو هلال (٢) قديما   وابن بحر .. والمنشئون العظام
وحملت الوسام .. من أمم الغر   ب .. فهل زاد في علاك الوسام
كيف تنسى لك الصحائف ما امـ   ـليت .. حتى لتعجز الاقلام
ومنحت « الايام » منك كتابا   هو أغلى ما ابقت الايام
ونفحت الورى « هلى هامش السيرة » .. ما تفتدى به الافهام
« وحديثا للاربعاء » .. جميلا   وحوارا « للحب » .. فيه هيام
« ودعاء الكروان » في هداة الليل .. هتافا سرت له انغام
و « ظهور الاسلام » .. تعرضه للنـ   ـاس .. رسما .. يجلى به الاسلام
وحديث « المعذبين على الار   ض » .. ولله في الورى احكام
ثم بشرى « بوعده الحق » .. للنا   س .. ومنه القضاء والابرام
صفحات .. مخلدات على الدهر .. وغيث ينشق عنه الغمام

أيها الخالد .. الذي لقي المو   ت .. ليحيى .. وفي الخلود الدوام
عشت حتى ظننت موتك يخشا   ك .. فللموت رجعة واحتشام
ثم حل القضاء .. فالجسم فان   وعلى روحك الفناء .. حرام
فيسير ان تخلد الروح منا   وعسير ان تخلد الاجسام
هذه للسماء تسمو .. وهذي   يحتويها بعد الممات الرغام
« تعب كلها الحياة » .. فما يعجب قوقا .. الا يجيء الحمام
« صاح هذي قبورنا .. تملأ الرحب » .. فاين القصور ، والاطام (٣)
« خفف الوطء .. ما أظن اديم الارض » .. الا ما خلفته الرمام
خاطر من ابي العلاء حزين   ومضي .. له يعود الانسام

ايها الراحل .. الذي هجر النا   ر .. وفيها مع العدو التحام
هذه مصر .. مثلما كنت ترجو   ها .. على الدهر امة لا تضام
رفضت أن تعيش بالذل يوما   فانبرى للقتال .. جيش لهام (٤)
واستردت سيناء .. فهي براح   ركزت في رماله الاعلام
حين صدت بباسها فرق الاعداء .. فروا كما تفر النعام
وتلاقى ابناء مصر .. على الحب .. فلم تبق فرقة او خصام
وسيعلو بناء مصر .. على الشهب .. وتزهو حضارة ، ووئام
لم تنم منذ ان هتفت بمصر   ولمصر جهودها ، واللمام
فلتنم هادئا .. فقد نهض الجيش .. وفي الصدر « انور » المقدام (٥)
وبدا في الوجود .. فجر جديد   كله للحمى .. رضى وابتسام

ايه « طه » .. وكيف يبلغك اليو   م مقالي ؟ وهل يؤدي الكلام
كان لي مجلس اليك .. ولكن   ماطلتني الشهور ، والاعوام
طال حزني عليك بعدا وقربا   وشفاني الاقدام ، والاحجام
غير انى جعلت مجلسك .. القلب .. وفي القلب مجلس ومقام
كان شعري لك ابتداء لامري   وهو اليوم .. اذ ختمت .. الختام

---

(١) الفرق بكسر الفاء . القسم والطائفة من كل شيء ، (٢) ابو هلال العسكري وعمرو بن بحر الجاحظ وكان الفقيد يضارعهما بقوة اسلوبه وأسر الفاظه ومعانيه . (٣) الاطام . الحصون، مفردها اطم بضمتين .. والاشارة الى ابيات ابي العلاء المعري في مرثيته المعروفة ، (٤) اللهام . الكثير الذي يلتهم كل شيء . (٥) الرئيس العربي البطل محمد انور السادات ..

مصر الجديدة   عامر محمد بحيري

يوم الثلاثاء

اعود مرة اخرى الى تدوين مذكراتي بعد انقطاع لا اعرف كم استغرق من الوقت . وعودتي الى القلم والورق حاجة لا مرد لها . لقد مرت بي حوادث عاتية ، وصرعتني اخبار كثيرة، وسحقتني امور هامة. وثبت عجزي عن التعبير عما اشاهد واحس واريد ، وتاكدت قناعتي لكثرة طوافي على اخصائيين من الاطباء ان استعادتي النطق ضرب من المستحيل .

في هذا اليوم ، ذهبت الى الملعب ، وحضرت مباراة دامية بكرة القدم بين اقوى ناديين في المدينة. وليس من عادتي ان اشاهد جولات الرياضة ، ولكنني وجدت متعة في رجال تجمعت مقدراتهم العقلية في احذيتهم واقدامهم .. كانت نتيجة المباراة سخية ، فقد جرح اكثر من عشرة اشخاص بينهم الحكم .

خرجت من الملعب يلفني فرح دائم بالنجاة ، اذ لم اصب باي اذى يذكر.

وقفت امام بائع الصحف ، استعرض الحبل الطويل من الجرائد والمجلات ، ولم اعثر بينها على شيء جديد ، ان كل ما اراه يتكرر .

سرت ساعة من الزمن في الشوارع التي تلتهب بالانوار وتعج بالاضاءة الملونة . وقد توقفت قليلا عند السيارة الصغيرة التي صنعت الحادث يوم امس ، وكان الناس يتحلقون حولها بفضول سخيف . قال احدهم لآخر ، وهو يبدو كالعالم في امور حوادث السيارات :

ـ هنا مات رجل عجوز .. وهذا دمه .

تابعت طريقي افتش عن شيء يجدد حياتي الرتيبة التي أعيشها، وابعدت نفسي عن المقهى اذ لا اريد ان اضيف فنجانا جديدا في حساب عمري .

نسيت ان اذكر ان الرجل الذي صدمته السيارة ظل مرميا على بلاط الرصيف نصف ساعة حتى يتفرج عليه اكبر عدد ممكن من المارة . وقد توقفت ودافعت الناس ، ودققت ملامحه ، فلعله واحد ممن اعرفهم. قال بعضهم :

ـ عمره مائة عام .. وان لم يمت اليوم فسيموت غدا .

وقال آخر بصوت مسموع :

ـ راى كل شيء في الحياة .. ولن يرى شيئا بعد هذه المائة .

وابدى الشرطي ، الذي وقف حارسا للجثة والسيارة معا ، اسفه العميق لان السيارة انحرفت وصدمت عمود الكهرباء وتهشم وجهها ولمنها آلاف الليرات ، وانه لا بد من لجنة منصفة لتقدير الخسائر ويجب انتظارها مهما تاخرت .. ثم قال :



بقلم جهاد الكاتب

ـ خرب بيت السائق ..

احتلت الكآبة هذه الليلة كل حواسي ومشاعري، وانا انظر الى صورة زوجتي .. ولم اجد خيرا من اخفائها في الخزانة .

يوم الاربعاء

حلمت ليلة الامس حلما مزعجا كان اشبه بكابوس مخيف . رايت نفسي عاريا كما ولدتني امي اقفز من سطح الى سطح هاربا ، وانا لا اعرف السبب الحقيقي ، واذ وصلت الى سطح معتم ، وجدت في المنتصف فتحة مضاءة تطل على غرفة واسعة. حاولت التدلي منها فلم افلح ، فهي ضيقة جدا .. سمعت ضجة وجلبة خلفي ، فتابعت هربي استر بين حين وحين عورتي ، حتى وقفت امام جدار اسود طويل فلم استطع اجتيازه .. ورحت الهث في زاوية السطح ، فقد خارت ركبتاي فاغمضت عيني . ولم اشعر الا وانا اهوي الى قرار بعيد .. وتبعني صوت طفل : هذا هو القاتل . وعندما اقتربت الارض مني صرخت بفزع : ماذا فعلت ؟. فتحت عيني لاجدني امسك جدران السرير بقوة.

ظللت طوال النهار معكر المزاج، تنتابني نوبات خوف وفزع حقيقي لم اشعر به من قبل او عرفته . وفي المساء هتف لي صديق قديم يعلمني ان محاكمة علنية ستجري غدا الخميس للسائق الذي سبب وفاة الرجل العجوز ، كما اخبرني ان السائق هرب لحظة وقوع الحادث واختفى ، ولكنه ظهر فجاة وسلم نفسه لرجال العدالة .

يوم الخميس

امضيت جانبا من هذا النهار اتقلب على السرير .

وفي المساء غلبني النوم وانا على مقعدي في دار للسينما، اشاهد عرضا عن علاقة المراة بالرجل، واغوارها ، وصورها . وقد ايقظني عامل الصالة بعد ان اسدل الستار، وتفتحت الانوار ، وانصرف الناس ، وخيم الصمت الموحش الذي يشبه صمت الظهيرة اللاهبة . قال لي عامل الصالة :

ـ يبدو انك تعرف الفيلم ؟

والحقيقة انني لا اجد على الشاشة اشياء جديدة ، فما يقدمونه اصبح مملا ومعادا . واضاف العامل ، وقد وجدني لا افتح فمي ، وانا انهض بتثاقل :

ـ انا ارى الفيلم كل يوم ثلاث



مرات ، ولا انام .

عدت الى البيت . مر في خاطري وجه الرجل العجوز ، وتصورت كيف يمكن ان تكون عليه المحاكمة ، وماذا يحدث لو ان السائق عاد الى الهرب. انني لاعجب من اهتمام كل الناس بهذه القضية ، فهي حديث المدينة باسرها .

يخطر لي الان أن اخرج صورة زوجتي من الخزانة ، واعيدها الى ظهر الطاولة ، وثمة اشياء دفينة تقول لي اتركها مكانها . انني قلق في هذا اليوم ، ولا اعرف مصدر قلقي .

يوم الجمعة ..

استيقظت باكرا هذا الصباح على صوت جرس الباب . وقد فاجأتني الجارة الشابة بجمالها واناقتها ، ولم اع ما طلبت مني استعارة وما اعطيتها . ان قلبي يرتاح لرؤيتها ، ولكنني كلما تذكرت زوجتي المسكينة التي توفيت هي وطفلها اثناء الولادة يزداد قنوطي . ان الشعور بالذنب هو من اقسى المشاعر في الوجود . ولو قدمت الى اي محكمة نزيهة فانني ساجد الطمانينة. ولكنني ساظل هكذا المعذب الدائم بذنبه . انني انا السبب في كل ما حدث لها وللطفل . فلو استخدمنا حبوب منع الحمل لكانت الان حية تملأ عالمي وتقتل هذا الملل وتخلصني من هذه العقدة . ان الزمن اصبح شيئا اكثر من تافه ، وهو على شدة تسارعه اراه بطيئا .

عدت الى الفراش ، وظللت ممدا عليه ، الى الضحى . وقد مرت براسي افكار عجيبة لم تكن تخطر ببالي قط. لو قصوا السنة الناس او اخترعوا دواء يذيب اللسان ويخفيه ، ولو لمدة قصيرة ، فماذا يحدث ؟

ذهبت اليوم الى المقهى ، وقد مضت فترة طويلة وانا اقاطعه . ومن خلف الزجاج بدوا اشبه باكياس طحين مكدسة . دخلت وارتميت بينهم كيسا جديدا ، كانوا يتحدثون بحماسة عن المحاكمة . وقد توقفوا عند نقطة هامة التزموا بعدها الصمت ، والصمت هنا ليس سكون افواههم ، فهم خرس مثلي ، ولكنه توقف حركة اليدين والعينين والشفتين . آخر ما قالوه ، او تنبهت له وفهمته :

ـ يجب ان نحضر المحاكمة . . انها تهمنا جميعا .

ـ ليس ذنب السائق ان يموت الرجل العجوز . الارض كانت مبللة برذاذ خفيف بعد ان رشتها سيارة البلدية .

ـ السائق كان مخمورا وهو لا يرى يمينه من شماله .

ـ الرجل العجوز كان يمشي في منتصف الشارع ، وسمعه ثقيل .

كان آخر من تحدثت يداه ووجهه هو انا :

ـ ربما اصاب السيارة عطل خارج عن ارادة السائق .

ولا ادري لم قلت ذلك مدافعا عن السائق ، على الرغم من ان مشاعري كانت منذ البدء تضطرم ضده وضد الشرطي والسيارة !

يوم السبت

طوال الليلة الفائتة ظللت قلقا ، ساهدا ، ولعل القهوة التي ادمنها هي السبب . مرت بخاطري صور وذكريات كثيرة ، منها صورة الجارة الشابة . وآلمني ان استعيد لغز موت زوجتي منذ سنوات بعيدة . لقد اصررت ان اثبت رجولتي ، ولم يخطر ببالي قط انني اطالبها ان تكف عن الحياة . ان هذا يعذبني . . وكم يسعدني ان اجد طريقة اكفر بها عن خطيئتي . قد تكون خطيئة الطبيب الذي اشرف على ولادتها ، وهو اشهر اطباء التوليد في المدينة ، ولم يتصادف معه وقوع حادث الموت طوال فترة عمله . لم لا تكون خطيئة الممرضة او القابلة التي اشرفت عليها اثناء فترة الحمل !! لم لا تكون خطيئة زوجتي نفسها ، اذ هي المرة الاولى التي تحمل فيها . الست مذنبا ؟. الم اكن سببا مباشرا اوغير مباشر في موت زوجتي وطفلي. . . ان ما يقلقني دوما هو انه لا توجد محكمة تستطيع ان تنظر في قضيتي فتدمغني بالادانة او تعطيني البراءة .

غفوت صباحا ، ولم استيقظ الا ظهرا ، بعد ان عاودني الكابوس المزعج مرة اخرى. وتذكرت ان موعد بدء المحاكمة قد فات ، فاسرعت بارتداء ملابسي دون ان احلق لحيتي.

وصلت مبنى المحكمة متاخرا . . كان الزحام كثيفا ، والقاعة ملأى ، والممرات محشوة ، والشبابيك مكدسة برؤوس متلاصقة . ووقفت انا بعيدا ، اترصد الاخبار وما يدور على السنة الناس . سالني رجل قصير القامة وانا اتطاول على رؤوس اصابع قدمي :

ـ ماذا ترى ؟

لم اجبه ، فعاد وكرر السؤال :

ـ هل صحيح ان القاضي قبل الرشوة من السائق ؟!

واذ وجدني لا ارد ، همس ، وهو يتركني حانقا :

ـ افضل شيء دوما أن يصبح الانسان اخرس .

ولم افهم ما حدث بالضبط في قاعة المحكمة ، وكل ما عرفته هو ان القاضي اجل النظر في القضية الى يوم الغد . ومنيت نفسي بانني ساعثر على التفاصيل الكاملة في احدى الجرائد المحلية .

بينما كنت عائدا الى البيت التقيت مصادفة بزميل لم اره منذ ايام الدراسة . وقد وجدت صعوبة قصوى لاعرفه بنفسي ، ولم اجد اسرع من هويتي لتساعدني في هذا المازق ، اذ اخرجتها حالا ، وجعلته يدقق في الصورة ، ثم تعانقنا عناقا طويلا . وقد فوجيء بصمتي . وحز في نفسه ان اصبح ابكم . وفهمت منه بصعوبة انه يعمل محررا في احدى صحف العاصمة . وقد

ارسلته مندوبا عنها الى مدينتنا ليوافيها باخبار المحاكمة المثيرة. وآثرت الا اساله عما حدث هذا اليوم في قاعة المحكمة . فقد ملئت الاشارات السخيفة باصابع يدي ووجهي وعيني !

يوم الاحد ..

ما زلت حائرا فيما حدث . فقد افقت حوالي منتصف الليل على صوت باب غرفتي ، وهو يفتح بهدوء وبطء. وقد ظللت فترة ساكنا لاتأكد مما يحدث فلعله حلم او كابوس آخر .. ولكنني رأيت يدا سوداء تمتد ، ثم وجها اسود،وضع بعدها شبح انسان خلف زجاج الباب ، على الرغم من العتمة الكاملة التي افرضها على الغرفة اثناء نومي .

كان مفتاح النور بعيدا من يدي، فسعلت ، واحدث سعالي الناشف صدى كالنباح ، فهدات حركة الباب برهة . تابع الشبح بعدها انسلاله الى الغرفة كقط اسود ضخم . والحقيقة انني ما عرفت الفزع كمثل هذه اللحظة . فقد تحقق لدي انه يقترب مني . وهممت ان اصرخ ، وانادي ، ولكن من يسمعني .. ثم كيف لي ان اصرخ ؟. وبقيت جامدا، لم ابد حركة،عيناي فقط كانتا ترقبان تحرك الشبح عندما اتجه الى الطاولة التي اضع عليها مذكراتي ، وهي قريبة مني . حملها بين يديه وراح يقلب صفحاتها بتحرق واضح على ضوء مصباح يدوي صغير. وسمعت صوت تمزق اوراق .. وظل يفتش ويقلب الغرفة الى ان فتح الخزانة الخشبية، ووضع شيئا من محتوياتها في عبه .. ثم خرج دون ان ينظر الي ، محدثا ضجة عادية ، وكأنه يقوم بمهمة رسمية .

قفزت من الفراش ، واولعت النور والتقطت المذكرات المرمية على الارض ، فاذا باوراق كثيرة جزت منها ، وبدت جذورها الممزقة واضحة. فتشت الخزانة بموجوداتها فلم اعثر على صورة زوجتي .. خارت قواي وظلت الدهشة تصرعني وانا مرمي على المقعد .

صممت ان ابتاع مسدسا سريع الطلقات مهما غلا ثمنه لاحمي به نفسي . صحيح ان الشبح لم يعتمد علي او يصيبني باذى ، ولكنه اخذ مني اعز ما املك .. انه الماضي الذي لا استطيع ان اعيش بدونه . انني على الاقل اقتات بما حدث واعرفه، اما المستقبل فانه ستار اسود قاتم لا اعرف ما خلفه ، وهذا ما يرعبني.

لن احكي لاحد عن زيارة الشبح لي ، خشية ان يتهموني بالجبن او بلوثة في عقلي .

صباحا التقيت على الدرج بالجارة الشابة ، وهي كما علمت ممرضة في احدى المستشفيات الخاصة . رحبت بي بابتسامة لطيفة ، وقالت:

ــ انني سعيدة جدا ان تكون جارنا .. ان امي ستدعوك الى العشاء في بيتنا .. رددت على ابتسامتها ، وهززت راسي شاكرا لطفها،وقد بدا عليها الاسف والحزن، وهمست تحدث نفسها بلهجة مشفقة: يا حرام ...

وصلت الى مبنى المحكمة باكرا، واستطعت الدخول الى القاعة التي ينظر فيها مقتل العجوز في حادث الدهس ، كما انني حصلت على مقعدامامي .. ووجدتني منقبض النفس ، اشعر برهبة وخشوع وانا انظر الى قوس المحكمة ، فتلك هي المرة الاولى التي اكون فيها داخل قاعة المحكمة ..

ظل القاضي الوقور براسه الاشيب ، ونظارتيه السميكتين ، يقلب صفحات الملفات المكدسة امامه ، قبل ان ينطق كلمته الاولى . ثم تحدث باختصار عن وقائع القضية فبدا نزيها ، متقنا اصول عمله . وقد صرخ السائق وهو يجلس خلف القضبان اكثر من مرة :

ــ انا بريء ..

واس جل الحاضرين في القاعة انه يمثل دوره باتقان ، حتى ان القاضي بهدوئه وحلمه قال له !:

ــ لسنا هنا نمثل على خشبة المسرح . ان دورك الان ان تصمت، وتستمع .

واكتشفت بعد انتصاف المحاكمة انني اجلس في صفوف ذوي الرجل القتيل ، اذ كانت حماستهم ضد السائق لا حد لها .. وقد احدثوا أكثر من مرة شغبا مقصودا ، وضجة منظمة اجبرت القاضي على ايقاف المحاكمة ، وتوجيه انذار لهم بطردهم من القاعة . ولا ادري لم شعرت برغبة لانتقل الى صفوف ذوي السائق ، ولكنني وجدت حرجا في تنفيذ ذلك ، فسكنت .

لم تدم المحاكمة طويلا ، فقد وقف السائق بجراة يطلب احضار شاهده الاول اذ قال :

ــ اطلب يا سيدي استدعاء الرجل القتيل .. فهو شاهدي الوحيد .. وهو يعرف الحقيقة اكثر منا ..

كان طلب السائق مفاجاة قاصمة زلزلت هيبة المحكمة ، اذ انفجرت صيحات متشجنة مستنكرة، وحدث لغط وهرج .. وصاح رجل من ذوي القتيل :

ــ هذا الرجل يريد ان يكون مجنونا حتى يحصل على البراءة ..

ولم يجد القاضي ، امام هذا الصخب والفوضى الا ان يعلن وسط اصوات قذرة تاجيل البت في هذا الطلب ، ورفع القضية الى يوم آخر . ولاحظ كثيرون شدة ارتباك القاضي ، وتوتر اعصابه ، اذ لم يسبق له ان تعرض لمثل هذا الموقف طوال حياته في القضاء ، وهو العلم المرفوع بين رجال القانون في البلد .. وبينما كان القاضي يهم بالخروج من الباب الخاص به .. صاح احدهم بوقاحة :

ــ هل افلست يا سيدي ؟

عند المساء لم اخرج من البيت، وسهرت امام شاشة التلفزيون مكرها .. انني معجب فقط بدعاياتها

الناجحة .. وانتظرت ان تعرض الدعاية الخاصة بالدواء الجديد لقتل الصراصير والبرغش والناموس .. فكثيرا ما يقلقني الناموس وانا نائم . فهو يتسلل الى ما تحت الغطاء ليمتص دمي ، ولا ادري كيف يحدث هذا ونحن لا نراه !

واستعرضت قبل ان انام ، وبعد احكام قفل الابواب والنوافذ ، ما دار معي في الليلة الماضية .. الشبح والذكرات وصورة زوجتي الحبيبة المسكينة . لم سرق الصورة هذا الخنزير ؟ انني لا امتلك سواها . ماذا يفعل بها ؟!

يوم الاثنين ..

خرجت هذا اليوم باكرا ، وقبل ان يطرق الباب بائع الحليب ، ذهبت الى المقبرة ، ووضعت على قبر زوجتي غصنا اخضر اقتطعته من احدى الاشجار . سالتها ان تصفح عني .. ان تغفر لي . وقد تخيلتها على حافة القبر تنتظرني.. مر رجل عجوز ووقف امام القبر ، هز رأسه مرات ، وقرأ الفاتحة ، وتابع طريقه يجر بيده سبحة طويلة طويلة .. وقد خطر لي ان أبرر لها سرقة صورتها من الخزانة ، ولكنني خرجت من المقبرة مسرعا ، اخطو خطوتين والتفت الى الخلف وكان احدا يطاردني .

اتصلت باحد مهربي الاسلحة المشهورين في المدينة ، وحاولت التفاهم معه على شراء مسدس من عيار ٩ مم ، وقد دلني بدوره على مهرب آخر يقال له : عنتر . وهو ، كما قابلته ، رجل غريب الشكل ، ضخم الجسم ، ذو وجه مكتنز تضيع فيه عيناه ، وله رائحة منفرة ، وكانه لم يغتسل منذ سنوات . لقد فرض علي ما يريد من الثمن ، وتمت الصفقة . واتجهت الى البيت وانا احمل تحت ابطي مسدسا جديدا . شعرت بثقله ، ولكنني شعرت في الوقت ذاته بقوة مضاعفة ، وطمانينة كنت افتقدها . وخالطت نظراتي علائم الاستعلاء وانا اراقب عيون الناس تبحث تحت سترتي ، بريبة وشك .

اشتريت علبة من مبيد البرغش .. ووضعته على الطاولة قرب الفراش ، ومنيت نفسي بنوم عميق هذه الليلة .

مساء ، مررت على المقهى ، وقد دار حديث مقتضب بادئا ، ثم اشتد خلافنا حول نتيجة المحاكمة . وتعبت يداي لكثرة حركتهما . وشعرت بعجز واضح ، فقبعت على الكرسي مشلولا ..

قرات في الجريدة ان المحاكمة اجلت في هذا اليوم نظرا لتغيب القاضي لاسباب مجهولة. والتقيت بصديقي الصحفي مرة اخرى في الطريق .. قال لي:

ـ ان القاضي وقع في ورطة لعينة ، اذ لا يعقل ان يستدعي قتيلا ليشهد على موته . وهو في الوقت ذاته قلق ، اذ لا يوجد نص قانوني يبيح له رفض استدعاء الشاهد، وهو شاهد الدفاع الوحيد الذي يعرف الحقيقة .

كتبت الجريدة ان جلسة الغد ستكون فاصلة وحاسمة ، وانه لن يسمح بحضورها الا لقلة من الناس الذين يحصلون على تصاريح خاصة مسبقة !

ساتناول الان قرصين من المهدئات ، فانا اشعر بتعب اعصابي ، وساضع المسدس منذ اليوم تحت الوسادة .

يوم الثلاثاء ..

نمت الليلة الماضية نوما عميقا ، ودهشت صباحا ، عندما تذكرت انني لم استخدم مبيد البرغش والناموس ، ومع هذا فانا لم اشعر بقرصة او امتصاص الدم .. وقد سرتني هذه النتيجة .

استطعت الحصول على تصريح خاص لحضور المحاكمة عن طريق شخصية مرموقة في المدينة . ووجدتني دهشا ، فمقعد الجارة الشابة كان مجاورا لمقعدي ، ولا ادري كيف حصلت هي الاخرى على التصريح . وتساءلت : ماذا يهمها من كل هذه المحاكمة . ويبدو انها قرات بحدسها افكاري .. فقالت بلباقة :

ـ لا بد ان اعرف النتيجة .. انها تهمني ، تهمنا جميعا .

كانت القاعة هادئة الا من وشوشات ، وهمسات عصبية كانت تدور على الشفاه ، بينما الرجال المدججون يحرسون منافذ ومداخل القاعة ، ويدققون هويات الداخلين بشكل تام .

قالت لي الجارة :

نسيت ان اقول لك .. امي تدعوك يوم العطلة القادمة الى طعام الغداء .. او العشاء .. كماتريد .

شكرتها بابتسامة . وتساءلت: ماذا تريد مني هي الاخرى ؟ هل تريد ان تموت كزوجتي المسكينة . قالت :

ـ ستعجب امي بك ..

شكرتها بابتسامة اخرى قصيرة. قالت :

ـ تستطيع ان تتفاهم معها على كل شيء .. انها مثلك !

ضحكنا .. واعجبني أن نضحك معا دون ان اتكلم .

مضت ساعة دون ان تفتتح الجلسة في موعدها المقرر .. كما انه لم يظهر احد من هيئة المحكمة على القوس .. فقط ، كان منادي المحكمة يروح ويجيء ، وقد بدا عليه الاضطراب والاعياء ..

وطال انتظارنا، وانا امضي الوقت بصعوبة ، واشعر بدقات ساعة معصمي وصوتها الرتيب يطرق اذني .. ولم تفلح كل تلك الاحاديث الجانبية الفارغة بيني وبين الجارة لتغطية قلقي وانقباضي .

وفجاة ، وبعدان ضجت القاعة تطالب بافتتاح الجلسة ، صعد موظف حكومي عتيق الى قوس المحكمة ، فخيم هدوء تام على القاعة ، ومطت الرقاب وارتفعت الرؤوس .

ذهب الشباب

ذهب الشباب ولا مرد — ومض ومـا الحب عهد
وبداية الحدث الجديـد — رنت تقول : الا استعدوا
لنهايـة مـا ان لنـا — يا نفس عنها اليوم بـد
نزل المشيب وهل لنـا — بعد المشيب هوى يجـد
لا الشوق يلعب بالنفـو — س ولاالجوى القلبيحدو
وشراع أيامـي تصـرم — حبلـه وهـو الاشد
فتش تجد طـي الضلو — ع من الضنى ما لا يحد
بـؤس وحرمـان والا — م واوصـاب تهـد
مـا هكذا ترضى المرؤة — للالى بالحـق جدوا
واطول ايـام الشقـا — ء وكم بهـا للصبر جهد
لا مـن خليل ارتجيه — ولا صدى عـن ذا يـرد
كـلا ولا مـن صاحب — منـه التعلـة استمـد
قد ذقت من غير الزمان — لدى النوى مـا لا يعـد
نمشي ولا ندري النـبى — اي الدروب بنـا تشد
روح تضيق بهـا الحيا — ة وهيكل الرمس يعـدو
اين الوهاد الفيح نغمرها — ضحى نعـدو ونغدو
والدوح رنمهـا النسيم — وعطـر الارجاء رنـد
وعرائس الاطيار تمـرح — في الربى جـذلا وتشدو
والغانيـات يمسن فـي — غنجالصبى والصحبحشد
نصغي الى العاصي يدا — عب شطه جزر ومـد
يا رب جد الـق الربـو — ع بمن احب ومـن اود
طالت علي قلبي الليالي — مذ طمى الشيب الالـد
ابكـي الديـار ولا ارى — منـذ علـي اسى يرد
وغـدا اذا جـاز الايا — ب وحان لي للعود وعد
ارسلت وابـل ادمعـي — منك الشفاعة استمـد
ومضيت يحدوني الغداة — اليـك شكـران وحمد

الارجنتين — فائق جبور

قال بصوت خفيض ، لا يكاد يسمع:

ـ القاضي لم يات .. والوقت المخصص للجلسة انتهى .

انصرف الناس مع صيحـات الاستنكار والتساؤل الملح .. وضاعت جارتي الشابة وسط الزحـام .. وقد صعد رجل الى قوس المحكمة ، وهو من الحاضرين ، وضرب بالمطرقة ثلاث طرقات ، وهرب .

التقيت على باب المبنى الكبير بصديقي الصحفي ، فاستفهمت منه عن الحقيقة ، والصحفيون يعرفون دوما ما يقع خلف الجدران ، قال والحيرة تصبغ وجهه :

ـ اختفى القاضي ، ولم يعثروا له على اثر في كل انحاء المدينة .

شغلت مساء بتنظيف البيت ، ونفض الغبار عن مكتبي . وقد مسحت الارض حتى أصبحت لامعة .. ثارت اعصابي عندما انقطع التيار الكهربائي وسكنت شاشة التلفزيون . حملت المسدس تحت ابطي وأشعلت شمعة .

ولم يأتني النوم الا حين عاد التيار الكهربائي .. ولكنني فضلت ان ادون مذكرات هذا اليوم فهي غريبة وهامة ... والان فان جرس الباب يضرب بشدة ..

حلب — جهاد الكاتب


ايليا حليم حنا

استاذي الذي احببته

بقلم ايليا حليم حنا

...

كنت مشغولا بكتابة ترجمة لاحد ادبائنا وفجاة احسست انني مقصر في حق انسان له فضل كبير علبي .. انسان يستحق ان اكتب عنه مجلدا وليس مقالا .

كان له اكبر الاثر في حياتي ، واعجبت بـه اعجابا قويا ، كان لي المثل الاعلىٰ في سلوكي ومن فرط حبي لـه وأعجابي به قلدته في كل ما اعجبني فيه فكرا ومظهرا .. قلدته حتى في مشيته وجلسته وايماءاته وطريقة حديثه، وبدات حياتي مثله مدرسا . انني اذكره حتى الآن وارى فيه الصورة الكاملة للمدرس المربي ..

كان يحب طلبته وطلبته يحبونه حبا قويا رغم تشدده معهم في حجرة الدراسة لانهم كانوا يحسون انه حريص على صوالحهم يتفانى في العمل من اجلهم وكنا نعجب اننا نحبه ونحترمه حتى وهو يقسو علينا !! كنا في الفصل نرى فيه المربي الكامل والمدرس الحازم القوي في مادته .. ونرى فيه خارج حجرة الدراسة اخا محبا لا يانف من مخالطة تلاميذه ولا يتعالى عليهم بل يعطف عليهم ويحل مشاكلهم . كنا نرى فيه رائدا يخط لنا الطريق وكان كما يلقننا العلم يسعى ان يحيا كل منا حياة طيبة ..

وطالما شاطرنا شعورنا واندمج معنا كواحد منا يناقشنا ونناقشه ، يفتح لنا صدره ويحترم آراءنا وافكارنا رغم انها كانت فجة غير ناضجة .. وكان اذا رأى احدا منا غير عادي لا يهدأ له بال حتى يعرف السبب وكثيرا ما زار أباءنا في بيوتنا اذا عرف لاحد منا مشكلة مع والديه . ولقد فتح لنا الرجل بيته وكان يلقانا فيه كأصدقاء يعتز بهم .. لذا كان بيته احب مكان لعدد كبير منا نقضي فيه معه امتع وقت في مناقشات حرة من وحي قراءاتنا واهتماماتنا ومشاكلنا ... وكان يحدثنا في كل شيء ، في الحياة والادب والفن .. وزادنا هذا احتراما وتقديرا له في حجرة الدراسة .. كنا نحس وهو يلقي علينا دروسه اننا في محراب مقدس نحسن الاصغاء اليه ولا نمل الوعي لما يقول ..

كان يحوطنا بالبر الابوي فنبتت بيننا وبينه الفة حبيبة وتجاوب مانوس .. لذا اثر في طلابه اثرا حسنا ، حسب استعداد كل واحد منا ، ولا اظن ان طالبا درس له استاذي لا يذكره الا وفي نفسه حنين له .

كنت طالبا في نهاية المرحلة الثانوية بالمدرسة المرقسية الثانوية بالإسكندرية وكان يدرس لنا اللغة الانجليزية .. وقد اكون اكثر الطلبة معرفة به لأن منزله كان يجاور منزلنا.. عرفت عنه كل شيء واختلطت به كثيرا .. وظلت صلتي به مستمرة حتى تخرجت في الجامعة وابعدتني ظروف العمل عنه عندما عينت مدرسا للغة الانجليزية بكلية البنات الامريكية بالاقصر ثم رحلت للتدريس في السودان حيث امضيت سبع سنوات .. كنت اراسله ويراسلني فيها ، وما زلت احتفظ بخطاباته لانها ثروة ثقافية هائلة كما انها افصحت لي عن الكثير من حياته ...

عرفت عنه كل شيء ابان الدراسة وبعدها وفي خطاباته لي ... اختلطت به كثيرا ... واخذت عنه حب القراءة فظلت معي حتى الآن اكبر هواية لي ، والفت فيها كتابا ، والفضل يرجع الى استاذي الذي غرس في كما غرس في غيري حب البحث وجعل مني قارئا شرها بعد ان كنت احاول ان اقرأ عندما اريد ان اجلب النعاس الى عيني . كان شابا جاوز العقد الثالث بقليل طويل القامة، نحيل الجسم يلبس نظارة على عينين واسعتين فيهما دواما احلام مرتعشة ، صوته عميق من النوع المعروف في فن الموسيقى بالباسو BASSO . اذا حدثك وجدت نفسك مجذوبا اليه تسمعه وانت مسرور ، عواطفه رقيقة واحساساته دقيقة .. اذا نظرت الى عينيه وهو يحدثك وجدت بحرا جياشا عميقا من الشعور والتاملات الصادقة .. عندما يتحدث يتدفق حديثه تدفقا قويا فتشعر انه يغمرك وتحس حرارة تفكيره فتجد نفسك تنصت اليه وقد استهوتك كل كلمة تخرج من فيه .

كان للرجل شخصية جذابة تفيض قوة وكان مفكرا حقا .. وكان يطلب منا ونحن نناقشه الا نتعصب مطلقا لفكرة او تقليد وينصحنا ان نفكر والا نقيد انفسنا بالماضي

... كان يقول لنا : « انتم شباب فليكن تفكيركم جديدا جريئا كالدم الجديد المتدفق في عروقكم ... لا تقبلوا اية فكرة الا بعد فحصها وغربلتها ... سيروا الى الامام في طريق التطور .. ان العالم يتجدد » .

وكان كثيرا ما يدخل فصلنا في الحصص الاضافية وكنا نسر كثيرا عندما يهل علينا ... وكان معظمنا يكتب ما يقول تماما كما يفعل الطلبة في الجامعة عندما يدونون ما يحاضرهم به استاذهم ...

كان يحدثنا عن السعادة فيقول : « ان السعادة لا تتحقق بالحصول على مسرات الجسد ولكن بترقية الذهن وملاءمة الاخلاق للمبادىء السامية ، ولا يتأتى هذا الا بامتحان يومي للنفس ... ان الشباب الحي هو الذي يكون له مثل اعلى يحبه ملء شبابه وملء قوته وملء امله ... هذا هو الطريق الى السعادة » .

كانت كلماته تشعل نفوسنا حماسة واملا ، نرددها كثيرا ونضعها نصب اعيننا ... كان موضعها دائما قلوبنا وعقولنا نحاول ان نجعلها دستورا لحياتنا .

وكان اذا لاحظ خمولا او تخلفا في احد تلاميذه يقول : « مؤلم للنفس ان يعرف صاحبها انه لن يحدث في هذا الكون اثرا ، وسعيد كل السعادة من يعمل ويعرف ان شيئا عظيما رائعا ينتظره في المستقبل » .

انني عندما اعود الى دفتر مذكراتي الذي كنت ادون فيه كلماته اشعر بعظمة هذا الرجل .. واهتف من كل اعماقي : (لقد كان عظيما) .

كان يكره المجتمعات وينفر منها ويحب البيت وهو عنده النعيم الارضي .. ولكن الويل لاثاث منزله منه فانه طالما نقله من حجرة الى حجرة ومن موضع الى موضع ، حتى صور الجدران كان لا يتركها في موضع واحد ، وكان له ولع شديد بشراء الكتب وكانت المكتبات احب الاماكن التي يزورها دائما ، وكثيرا ما كنا نلقاه في « سوق العطارين » يبحث عن كتاب يستهويه بين مئات الكتب القديمة المكدسة بغير نظام ... كان البحث عن الكتب وشراؤها احدى هواياته المفضلة ... لذا فقد كان له مكتبة فاخرة منسقة تنسيقا حسنا .

كان انسانا دمث الاخلاق طيبا وكان شهما واذا اخذت على رجولته هفوة فهي الحياء .. كان كثير الخجل ، قليل الكلام محبا للصمت في حضرة الاغراب ... حياؤه يجعلك تظنه - اول ما تراه - متكبرا ولكنك اذا حادثته وجدته متواضعا ، حلو المعاشرة عذب الحديث ، لا تشبع له من كلام ، يسرق وقتك دون ان تشعر ... وكان يعتز بنفسه الى درجة كبيرة ... له ضمير حساس ، لا يحب التملق او المداهنة .. وهو مخلص جدا وصديق حميم محبوب من كل من يعاشره .. كما انه كان صريحا يقول ما يراه حقا وكنا نعجب من جمعه بين الحياء والصراحة ، وكان يعمل كثيرا ولا يمل وكان قوي الارادة ... اذا عزم على شيء فمن الصعب ان تجعله ينزل عنه .

كان يحب اسلوب المنفلوطي وجبران ، وكان يعلق على جدران مكتبه صورا لهما ولفكتور هوجو ، وجان جاك روسو ، وتولستوي وكان يحدثنا عنهم كثيرا وعن ادبهم ، وكان يحتفظ باعمالهم التي كان يقرأ ما ترجم منها ، باللغة الانجليزية التي كان يجيدها اكثر من الفرنسية .

كان والده يود ان يكون مهندسا مثله ولكنه خلق ليكون مربيا واديبا ... سألته مرة في زيارة بعد تخرجي ... لم لم تدخل كلية الهندسة بدلا من كلية الآداب ؟ قال : « لم اكن سعيدا في طفولتي فطفولتي حبسوها في قمقم اسود من المشاحنات وكانت تربيتي تربية تقليدية تستند على العادات التي تسلب الطفل حريته وتجعل من الوالد دكتاتورا ، وكنت اجد في اسلوب هذه التربية تدميرا لي ... بسببها خسرت الشيء الكثير من ذاتي ومن نفسي فوجدت عزائي في الادب ينسيني واقعي ويفرج كربتي بقراءتي عن انماط من الناس تتعذب مثل ما تعذبت » .

كان استاذنا اديبا ومربيا حقا ... كان في كل ما يكتب او يقول المربي الرائد والفنان الملهم يتألق الحب النبيل في كتاباته ويترقرق في عباراته ... كان يكشف عن الحياة ويضرب في مجاهل الدنيا ... وكان احيانا يعيش في دنيا الخيال وله ولع شديد بالطبيعة ... ولذا فاننا كثيرا ما كنا نراه يعمل في حديقته الصغيرة او جالسا امام زهرة يتفرس فيها معجبا مشدوها ... كان يكره الضوضاء وينفر منها ، يحب الهدوء ولا يطيق ان يتحدث احد بجواره بصوت مرتفع ... يحب الليل والعمل فيه .. وكان يستيقظ مع هذا مبكرا ليكتب ... كان في نشاطه مثلا قويا لطلبته وكان لا يتعب ولا يمل .. كان شعلة دائمة التوهج .. لا يلذ له ان يهدأ برهة ، وكان دواما يطالع ويكتب ... كنا لا نذهب اليه في منزله الا ونراه غارقا في المجلدات مغمورا في محيطها تائها عن دنياه ساهما حالما مفكرا كاتبا .

اذا جلس ليكتب فلا بد ان يكون بجواره نافذة تطل على السماء وامامه الزهور على مكتبه ، ويكره ان يسمع صوتا يقطع عليه سلسلة افكاره ، حتى انه كان يخيل الينا انه لو تمكن ان يوقف دقات قلبه لفعل حتى يهنأ بالهدوء الشامل .

كان احب الالوان اليه اللون الازرق الفاتح ، كان يفضله دائما في اثاث منزله والجدران ويجلد به كتبه .. اما في ملابسه فانه كان يفضل اللون القاتم .. فحذاؤه اسود وحلله معظمها اسود او كحلي او بني حتى رباط رقبته كانت غامقة ايضا .

وكنا نعجب كيف يوفق في تدبير الوقت لتحضير الدروس وتصحيح الكراسات ، وبين اطلاعه الخاص ، والكتابة ، والاجتماع بطلبته ، وتعهد هواياته .. وكان

لهفة

●

احب ؟. وهذا الغزال الشرود — يطول مداه ، ولا يرجع
يظل الحنين يلح ، ويهفو — الى الآل ظمآن لا يجرع
الى أين ؟ تلهمني مرأة — فالهو بقافية تلمع
أمانا .. فانت المنى كلها — وبي لم تزل لهفة تطمع
وما ضرني انني فارس — لعينيك وحدهما اخضع
الى أين ؟ ملء يدينا غد — فما تصنعين ، وما اصنع

حلب ـ دار الكتب الوطنية — علي الزبق

له غرام بتربية الدواجن وكان يفضل الارانب ويحبها ، فان لم تجده امام زهوره يتأملها ويعجب بها فهو بين ارانبه يلهو مع صغارها .. كان يعطف على دواجنه عطف الاب على ولده ولا يطيق ان يرى ارنبا صغيرا يموت كما انه كان لا يذبح شيئا مما يربيه ... وكان عنده كلب يحبه وحزن عليه حزنا شديدا عندما مات ورثاه ورأيناه يبكي كلما تذكره وكأنه فجع في اعز عزيز لديه وقرأنا رثاءه بكلبه وتأثرنا لانه افرغ في هذا الرثاء كل عواطفه وحبه..

كان الرجل رقيقا وفيا محبا لكل شيء ، طابعه الاول غرامه بالطبيعة وكرهه للحياة المادية ، وكان يكبر من شأن الحياة الروحية ... اصيب مرة بضعف في قلبه فكان اذا طلب منه ان يكف عن اجهاد نفسه والسهر ليلا ـ واكثر ما كان ينبهه الى ذلك والدته ـ يقول .. ان كان السهر يتلف جسدي فهو ليس بقادر ان يتلف روحي وحقيقة الحياة عندي روح ، وكان يحتقر النزوات الطائشة ، والمرأة لها سحر عليه ... ولكنه لم يتزوج .. ان المرأة التي كان يحلم بها اقرب الى الملائكة منها الى البشر .. والحياة عنده منزل هادىء ، وامرأة هادئة رزينة ، وطبيعة جميلة ، وقلب عف ، ومثل اعلى يعمل على تحقيقه .

كان شديد الحساسية .. يكاد يعرف ما يجول بخاطرك وانت جالس معه .. وكان دواما يحاسب نفسه على كل ما يعمله ويستعيد تصرفات الناس معه ، وما قالوه له وعنه ، ويدون في مذكراته اخطاءه ويعمل على الا تتكرر منه ... وكثيرا ما وفق في ذلك ..

كان يكتب في صحيفة اسمها « الوادي » .. وقد طبع عدة بحوث ، وله كتاب قيم اسمه « صور » ..

كانت رسائله الي وانا في السودان تنم عن حزن دفين ... وكتب لي مرة بعض ابيات من قصيدة له يقول فيها :

الى اين يا عمري ستمشي على اللظى — وتامل في دنياك وهي سراب
تبدي لك الطيب الذي كنت ترتجي — وهذا الذي يرجى اسى وعذاب

وكتب لي في آخر خطاب وصل الي منه :

« افنيت حياتي ... ضحيت بآمالي .. جاهدت.. كافحت .. اشفقت .. احببت .. عاملت الناس بالذوق واللين .. نسيت الاساءة والاهانة .. سامحت . ماذا اخذت من كل شقائي وكفاحي وتضحياتي ؟ لا شيء على الاطلاق ... ليتني ارضيت احدا بعد كل ما كابدت من عناء وحرمان !! »

كان انسانا عميقة انسانيته .. كان اديبا مطبوعا ولكن لم تحقق له الايام حلمه الجميل .. فقد كان يصبو ان يكون صاحب رسالة يؤديها لخدمة الانسانية وكان من السهل ان يتبوأ المكانة التي كان يصبو اليها .. لو لم نفجع فيه ... انه لم يمت ولكنه الآن نزيل مستشفى الامراض العقلية .

اننا لا نذكره الا والاسى يحز في قلوبنا حزا ... وكنا نود ان يكون معنا ... يؤدي رسالته ونحج الى محرابه .

القاهرة — ايليا حليم حنا

مشهد من مسرحية فلسطين الثائرة

تقف ام موسى مطرقة والى جانبها زوجها القائد عبد القادر

ام موسى بحزن :

اوكان حتما ان نعيش   معذبين على المدى

ونظل نكدح في العذاب   وليس من هدف ، سدى

نجري وخاتمة المطاف   من الحياة هو الردى

كنا الصدى بفم العذاب   ونحن اضيع من صدى (١)

وحياتنا لمع السراب   جرى ولم ينقع صدى (٢)

القائد عبد القادر :

لم نأت عن عبث ولم   نخلق كسائمة سدى

هدف الحياة اجل من   لغو يردده الصدى

ان الحياة رسالة   بالنور تسطع والهدى

نسعى لنبلغ ذروة   سمقت وندرك مقصدا

نبني كما بنت الاولى   صرحا اشم ممردا

ونصون تاريخا اغر   على الزمان مخلدا

ما كان انبل ان نصون   ثرى بروح يفتدى

ارض الفتى التاريخ   طاول في الشموخ الفرقدا

والحر من صان التراب   ولم يقصر عن فدى

ام موسى :

عبء الامانة دونها   الاعناق تشهق من عياء

والمرء في شتى العصور   المرء ، من طين وماء

والقلب كان القلب   مصدر ما نقاسي من بلاء

هو علة الضعف اللئيم   بنا ، ومصدر كل داء

تقف مفكرة وتتابع :

عجبا أأتهم القلوب   اذا هفت عند اللقاء

والمرء يسمو بالمشاعر   في الحياة وفي الولاء

عبد القادر :

كم كان بين مشاعر   ومشاعر من فارق

البذل غير البخل   والمقدام غير الابق

ما كل قلب راح يخفق   في الصدور بخافق

كم من فؤاد كان اضرى   بالاذى من باشق

انا ما نطقت على الهوى   بهواجس من مائق

ادليت غير موارب   عن خبرة بحقائق

---

١ ـ الصدى : الصوت في الخلاء

٢ ـ الصدى : العطش

دمشق   عدنان مردم بك



عبد الرزاق الهلالي

من شعراء العراق

المفتي السيد محمد حبيب العبيدي

١٢٩٦ هـ - ١٣٨٣ هـ

١٨٣٨ م - ١٩٦٣ م

بقلم: عبد الرزاق الهلالي

* * *

توطئة: ان هذا الشاعر الذي نتحدث عنه، من الشخصيات العربية الاسلامية الكبيرة، التي كان لها في النصف الاول من هذا القرن، اسم بارز، ونشاط كبير، في ميدان الجهاد والعمل على جمع كلمة المسلمين، واعلاء شأن الامة العربية، وقد استمر هذا النشاط الى آخر ايام حياته! ومن اجل صفحات هذا الجهاد والعمل الاسلامي العربي الذي قام به هذا الشاعر في مجرى حياته، نقدمه للقارىء الكريم وفق ما يلي:

العبيدي: ... لقد شاء هذا الشاعر ان يلقب نفسه بلقب (العبيدي) على الرغم من كونه، سيدا أعرجيا، من سادات الموصل الاجلاء (١). لقد لقب نفسه بـ (العبيدي) نسبة الى جده الفقيه والعالم الشهير قاضي الموصل السيد عبيد الله بن خليل البصير، المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ.

من هو العبيدي؟ هو السيد محمد حبيب بن السيد سليمان بن السيد عبدالله، ابن ابراهيم بن عبيد الله بن خليل البصير الاعرجي العلوي! ولد في مدينة الموصل يوم ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٩٦ هـ الموافقة لسنة ١٨٧٨م، ونشأ في كنف ابيه، محاطا بحبه ورعايته، حتى اذا بلغ السابعة من عمره، ادخله احد الكتاتيب، لكنه لم يلبث فيه الا سنة واحدة، اذ نقل بعدها الى «المكتب الرشدي» فاكمل دراسته في هذا المكتب باربع سنوات بدلا من ست!

ولما انهى دراسته هذه، هيأ له ابوه، استاذا خاصا يدرسه العلوم العربية، هو الشيخ علي افندي الحصري. حتى اذا قطع شوطا مع هذا الاستاذ الفاضل، اسلمه أبوه الى استاذين اخرين هما السيد احمد الفخري واخوه السيد محمد الفخري، حيث قاما بتدريسه بقية (علوم الجادة) فأجيز وهو في سن التاسعة عشرة، الاجازة (العالية) على السنن المعتادة في العلوم الدينية!

دراسات اخرى: وتمكن خلال هذه السنين من اتقان اللغة التركية وبرع بها واحاط بآدابها، وبات قادرا على نظم الشعر بها، كما اتقن اللغة الفارسية واطلع على الادب الفارسي وقرأ شعر كبار شعراء الفرس! ثم انه عكف على دراسة التاريخ العربي والاسلامي، فنشأت فيه رغبة شديدة للعمل على خدمة الامة العربية خاصة والاسلامية عامة. وقد باتت تلك الرغبة عملا ظاهرا، بعد اعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨، حين اخذ منذ ذلك التاريخ يبث آراءه الاستنهاضية ومشاعره العربية الاسلامية في ما يكتب وينظم باللغتين العربية والتركية.

في جامع النبي يونس: ولما نال (الاجازة العالية) وجهت له وظيفة التدريس في جامع النبي يونس (ع) في مدينة الموصل، وكان آباؤه واجداده يشغلون هذا المنصب الديني منذ عهد (تيمورلنك) باني هذا الجامع!!

---

١ - ينتسب السادة العلويون في الموصل الى الامام (عبيد الله الأعرج) بن الامام الحسين الاصغر بن الامام الحسين بن علي بن ابي طالب (ع). فهم سادة (اعرجية) الا ان عائلتهم الكبيرة هذه تشعبت وازدادت فروعها على مر السنين والاعوام، فظهر من جميع هذه الفروع، نقباء اجلاء، وعلماء وفقهاء وقضاة فضلاء وعدد من الشعراء والادباء. وكانت لهؤلاء الرجال مراكز مرموقة واعمال جليلة في الحياة السياسية والدينية والادبية في الموصل خاصة. وتتفرع هذه العائلة الكريمة اليوم الى عوائل عدة هي: آل المفتي، آل الفخري، آل العبيدي، آل حافظ، آل النقيب، آل السيد علي آغا، آل الاعرجي آل العريبي، آل السيد حسن، آل السردار، آل القاضي، آل مرتضى، آل الخليفة. هذا وان اقرب النقباء الذين انتمت اليه هذه العوائل وتفرعت عنه هو النقيب (محمد نصير الدين) نقيب نقباء الموصل وديار بكر ونصيبين المتوفي سنة ٩٢٥ هـ والجد الاول الذي استوطن الموصل سنة ٤٣١ هـ، هو النقيب (محمد ابو البركات) استقينا هذه المعلومات من كتاب الاستاذ حازم المفتي الموسوم بـ «نقباء الموصل العلويون» المخطوط.

وقد انكب في هذا الجامع على الوعظ والارشاد والتدريس حتى عام ١٣٢٨ هـ .

الى استانبول : وفي سنة ١٣٢٨ هـ ــ ١٩١٠ م غادر الموصل قاصدا عاصمة الخلافة ، استانبول ، فلما وصلها استمرأ العيش فيها ، فبقي في حماها زهاء السنتين . وخلال وجوده هناك ، قامت جيوش ايطاليا بغزو طرابلس الغرب، وحين سمع بهذا الغزو الاستعماري الغاشم ، ثارت حميته الاسلامية، واخذ يعبر عن مشاعره بما كان يلقي من خطب وقصائد في الحث على الجهاد ووحدة كلمة المسلمين لرد كيد المعتدين !!

العودة الى الموصل : وفي سنة ١٣٣٠ هـ ــ ١٩١٢م عاد الى الموصل وهو على اشد ما يكون حماسة واندفاعا، ولذلك لم يكد يستقر به المقام في مسقط رأسه حتى بدأ عمله السياسي والديني ، وكانت الخطبة التي القاها في ساحة (قضيب البان) على جمع كبير من علماء ووجهاء الموصل تلك الخطبة الهامة التي سميت بخطبة (نادي الشرق) خير مثال على هذا النشاط .

الحرب والجهاد : وفي اوائل سنة ١٩١٤ م سافر الى بيروت للمعالجة والراحة . بينما كانت نذر الحرب العالمية تلوح في الافق ، ولذلك لم يكد يصل الى بيروت حتى اعلنت الحرب ، ثم تتابعت الاحداث التي انتهت بدخول الدولة العثمانية الحرب ضد الحلفاء ، فما الذي يفعله هذا الرجل المسلم ؟ هل يقف موقف المتفرج او يبدأ عمله في نصرة الجيش العثماني ؟! كلا ، لم يقف موقف المتفرج، بل اخذ ينشر القصائد الطوال في استنهاض الهمم والدعوة لمحاربة (الكفـــار) والدفاع عن ثغور المسلمين !

في جناق قلعة ! وخلال وجوده في سورية ، انتصرت القوات العثمانية ، على جيوش الحلفاء ، في معركة (جناق قلعة) فكان لهذا الانتصار صدى بعيد في العالم الاسلامي . وقد اراد قائد الجيش الرابع في سورية (جمال باشا السفاح) ان يتخذ من هذا النصر وسيلة للدعاية ، ولذلك قرر ايفاد بعثة تتألف من كبار الشخصيات السورية ورجال الدين ، الى جناق قلعة واستانبول ، وقد اختير السيد العبيدي (الذي كان موجودا في الشام انذاك) عضوا في هذه البعثة . فلما سافرت برئاسة الشيخ اسعد الشقيري في نهاية شهر ايلول سنة ١٩١٥ ، وقامت بزيارة ميدان القتال ومن ثم استانبول ، كان للسيد العبيدي خلال هذه الزيارة عدد من الخطب والقصائد التي يحث فيها على وحدة العرب والترك ويدعو الى الوقوف صفا واحدا في وجه العدو الكافر !!

العودة الى بيروت : ولما رجعت البعثة من زيارتها، الى دمشق في سنة ١٩١٦م، رجع العبيدي الى بيروت، وهناك قام باصدار ثلاث رسائل هي :

١ ــ صدى الحقيقة : تكلم فيها من العلاقة بين العرب والترك وحض المسلمين فيها على الجهاد .

٢ ــ حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الاسلام ــ : ذكر فيها جنايات الانكليز.

٣ ــ جنايات الانكليز على البشر عامة وعلى المسلمين خاصة ــ : اعاد فيها ذكر جنايات الانكليز في رسالته السابقة واضاف اليها !

في الاسر والاعتقال : ولما انتهت الحرب العالمية بانتصار الحلفاء ، اعتقل السيد العبيدي ، وسفر مع المعتقلين الى الهند ، الا انه لم يلبث هناك طويلا ، بل نقل الى مصر حيث احتجز في (ثكنات قصر النيل) فظل معتقلا في هذا المعسكر البريطاني حتى شهر مايس سنة ١٩١٩ م اذ اطلق سراحه وصرح له بالعودة الى وطنه .

وقد ذكر لنا الاستاذ حازم المفتي ان للعبيدي رسالة تناولت ما جرى له في هذا المعتقل عنوانها « شفاء الغليل في رحلة وادي النيل » وانها لاتزال بين مخطوطاته!

في الموصل الحدباء : ولما عاد الى الموصل الحدباء، وجد ابناء وطنه على فوهة بركان ثائر ، لا سيما بعدما قلب الانكليز لهم ظهر المجن ، وانهم في سبيل الثورة على بريطانيا ، فلقي هذا الوضع في نفسه هوى ، ولذلك سارع في المشاركة في هذا المعمعان ، حين اخذ ينظم القصائد والاناشيد الحماسية ويلقي الخطب القومية الملتهبة . ثم لما اعلنت عصبة الامم عن جعل العراق تحت وصاية بريطانية ، ارسل صيحته المدوية التي اسماها « صيحة السماء وصدى الضمير » فكانت موشحته هذه من القصائد التي اذكت مشاعر الثوار في سنة ١٩٢٠ فضلا عما له من قصائد وطنية اخرى في تأييد هذه الثورة الوطنية الكبرى !

مغادرة العراق ثانية : ولما انطفأت نيران ثورة العشرين ، وسيطر الانكليز سيطرة تامة على مقدرات البلاد ، انذر العبيدي ، بمغادرة وطنه ، فغادر الموصل قاصدا دمشق فبيروت ، وقد ظل في تلك الديار حتى عام ١٩٢١ ، عندما تم تشكيل الدولة العراقية وتنصيب فيصل بن الحسين ملكا فيها . لقد رجع العبيدي الى الموصل ، بعد هذا التاريخ ، والامل يداعب نفسه في هذا العهد الجديد ، ولكنه مع هذا لم يكن واثقا كل الثقة بسياسة الانكليز . وقد اعرب عن هذا الشك في قصيدته التي القاها حين زار الملك فيصل الاول مدينة الموصل ، فقد قال فيها :

جهابذة التاريخ هل من مخبر ... عن العرب يوما اين شالت نسورها
وماذا دهى قومي فبدد شملهم ... كان لم يكن مأوى العروس سديرها
وكيف هوى من امتي نجم سعدها ... وكيف ذوى بين الرياض نضيرها
اما آن ان تحيا معالم مجدنا ... وتنشر موتانا وينفخ صورها
اليك الهي اشتكي من ذنوبنا ... ورحماك ربي انت انت غفورها

مفتي الموصل : وفي نهاية سنة ١٩٢٢ ، صدرت

الارادة الملكية باسناد منصب (مفتي الموصل) الى العبيدي، فلحقه منذ هذا التاريخ لقب (المفتي) ، وحين شغل هذا المنصب ، لم يرض بتسلم الراتب المخصص له من دائرة الاوقاف ، بل ظل يشغله بدون راتب حتى آخر لحظة من حياته (كما ذكر ذلك لنا قريبه الاستاذ حازم المفتي).

نشاط اسلامي : وحين كان مفتيا في الموصل اختير في سنة ١٩٢٦ لتمثيل العراق في «مؤتمر الخلافة الاسلامية » الذي انعقد في القاهرة . ومن المناسب ان نذكر هنا ، ان المرحوم احمد شوقي له قصيدة نظمها بمناسبة هذا المؤتمر عارض فيها فكرة الخلافة ، وقد رد عليه العبيدي برسالة اسماها « شوقي وعصماؤه والاسلام وخلفاؤه » وان هذه الرسالة لا تزال بين مخطوطاته !

ثم في سنة ١٩٣٠ سافر الى سورية ولبنان وفلسطين طلبا للراحة والاستجمام ، وقد طالت هذه السفرة حتى عام ١٩٣٢ ، وفي هذه السنة عقد المؤتمر الاسلامي العام في القدس ، فمثل العراق فيه .

وطبع في دمشق في سنة ١٩٣١ كتابه الموسوم بـ « النواة في حقول الحياة » ونشر كثيرا من القصائد القومية والوطنية في صحف بيروت ودمشق !

العودة الى الموصل : وفي نهاية سنة ١٩٣٢ عاد الى الموصل بعد فراق سنتين ، لكنه لم يكد يستقر به المقام في بلده ، حتى قامت جماعة الآثوريين بالعصيان على الحكومة ، ثم حدثت بعد ذلك احداث سياسية هامة فلم يجد تجاه هذه الاحداث بدا من الاعراب عن مشاعره بقصائده الوطنية ومقالاته القومية .

وفي سنة ١٩٣٤ بدأ ينشر مقالات سياسية بعنوان « ماذا في عاصمة العراق من سم وترياق » اصدر منها كراستين ، ثم منعته السلطة من الاستمرار في نشر هذه الكراسات !

العبيدي النائب : وحين اجريت الانتخابات النيابية في زمن حكومة ياسين الهاشمي سنة ١٩٣٥ ، اختير العبيدي (نائبا) عن الموصل ، وقد ظل في هذا المجلس حتى انقلاب بكر صدقي ، فلما اغتيل قائد هذا الانقلاب، وحل المجلس بعد ذلك ، انتهت علاقة العبيدي بالمجلس ولم يرشح نفسه للنيابة بعدها !

نشاط ادبي وسياسي : وحين قطع العبيدي صلته بالنيابة ، عاود نشاطه السياسي والادبي ، وقد انعكس هذا النشاط في اعمال عدة ، منها قصيدته التائية التي جعل عنوانها « الفاروقي واهل البيت » وهي القصيدة التي نظمها سنة ١٩٤١ ليرد فيها التحية الى الشاعر المرحوم عبدالباقي العمري . ومنها قصيدته التي عنوانها « غزل ام تصوف » وسبب نظمها اعجابه ببيت جميل كان جده الشاعر (خليل البصير) نظمه باللغة التركية، وقد ترجمه العبيدي بقوله :

انا لا اطبق جفني حذرا ... من خيال الحب يشكو ثقلته

وفي سنة ١٩٤٧ اصدر كتابه الموسوم بـ « الفتوى الشرعية في جهاد الصهيونية ».

ونظم في سنة ١٩٤٨ قصيدته الطويلة التي تقع بعشرين قطعة ، كل قطعة في احد عشر بيتا ، وفي خاتمة كل قطعة يكرر الشطر (رب رحماك اليك المشتكى !)

وصيتي الاخيرة : وكان آخر ما نظم العبيدي هذه الابيات التي نظمها يوم (١٩٥٢/٨/٥) بعنوان « وصيتي الاخيرة » وهي :

الى الله اشكو سوء دائي فانني ... اموت مرارا كل يوم وابعث
فان لذ حب المال يوما لوارث ... فما انا الا للفضائل مورث
شكوت عين الاسلام من عدوه ... وذل بنيه والبراعة تنفث
ساغدو لاحقاد .... ضحية ... واحقاد اسرائيل والقوم اخبث
فرنسا وامريكا وطاغوت لندن ... سلوهم والنابا لهم ليحدثوا
فهل يمعي يوما يطالب مسلم ... فيثار منهم وعني يحبث
اليك الهي من المشتكى من دسائس ... ينافق فيها خائن وتخنث

الاعتكاف : ولما شعر العبيدي بثقل هذه الحياة واعبائها عليه ، لا سيما بعد أن تقدم به العمر ، آثر ان يعتكف في داره منذ عام ١٩٤٥ ، لا يخرج منها ابدا ، الا انه كان في معتكفه هذا ، يستقبل زواره من رجال الدين والعلم والسياسة والادب !

آخر الصفحات : وهكذا ظل مفتي الموصل السيد محمد حبيب العبيدي ، مثلا بارزا من امثلة الجهاد في سبيل العروبة والاسلام ، حتى وافاه الاجل المحتوم يوم (١٩٦٣/١١/١٩) فودع هذه الدنيا الفانية وله من العمر (٨٥) عاما .

آثار فكرية مخطوطة : لقد افادنا الاستاذ حازم المفتي ، ان للمرحوم العبيدي آثارا فكرية مخطوطة هي :

١ ـ شفاء الغليل في رحلة وادي النيل .

٢ ـ على مسرح الدهر ما رايت ؟ وهي ملحمة تاريخية ، تعتبر من اروع ما نظم ، تبلغ زهاء (١٠٠٠) بيت ومطلعها :

خلني بالله من رجم الظنون ... ومن الحمقى ومما يعرفون ؟

٣ ـ المجادلات السياسية واسباب الفشل الانسانية

٤ ـ ايقاظ الوسنان في حياة الانسان .

٥ ـ حكم الشعب بين الدمقراطية والدكتاتورية .

٦ ـ مقالات وخطب سياسية ودينية واجتماعية .

٧ ـ الجرائيم الثلاثة .

٨ ـ رسائل العبيدي (جزءان) .

العبيدي الشاعر : ويعد السيد محمد حبيب العبيدي ، في الطليعة من شعراء العراق في مطلع هذا القرن ، يمتاز شعره بجزالة الاسلوب ، وقوة اللغة ووضوح الفكرة وبيان الهدف . يفيض شعره بالعاطفة الاسلامية والشعور القومي والاحساس الوطني ، وأن نظرة واحدة على ديوان شعره (الذي طبع في سنة١٩٦٣) تكفي للوقوف على ذلك .

نماذج من شعره : ورغبة في اعطاء القارىءصورة واضحة المعالم عن هذه الشخصية العراقية ، فها نحن، اولاء ، نقدم له فيما يلي نماذج من شعره الذي يمثلـه في مواقف وجدانية مختلفة :

١ ـ جزيرة العرب

وتعتبر قصيدته هذه من القصائد القومية الرائعة التي ظل يتغنى بها العرب ولا يزالون لما فيها من الشعور القومي والعزة العربية اذ قال واصفا جزيرة العرب :

لحصاها فضل على الشهب ... ولرباهـا خير من اللهب
تتمنى السماء لـو لبست ... حلـة مـن طرازهـا العجب
ان بـدا الآل في مفاوزها ... قـل لنهـر المجرة احتجب
واذا البرق شام مبسمها ... اسكرتـه بخمـرة العجب
عج بارض الحجاز اشرفها ... لتريك الاقمـار عـن كثب
لستارضى السماء لي وطنا ... بـدلا مـن جزيـرة العـرب

نحن احفاد امـة نصبت ... علمـا للهـدى على النصب
نحـن احفـاد امـة سطرت ... معجـزات التاريـخ بالقضب
نحن احفـاد امـة حقيت ... يـوم قامـت بارفع الرتب
سوف نحييمجد الألى حطموا ... عرش كسرى في سالف الحقب
فكسوها ثـوب البهـاء بما ... ابدعوا مـن علم ومـن ادب
لست ارضىالجوزاء لي وطنا ... بـدلا مـن جزيـرة العـرب

٢ ـ يعاتبـني قومي

يعاتبني قومـي كانـي مجـرم ... ومالي ذنب غير اني مسلم
سمعت سيوف الحق تخطبفي الو ... غى وسمر العوالي بالهدى تتكلم
فلبيت صوت اللـه اذ هتفوا بـه ... ولست بمن عن صيحة الحقيحجم
دعوها جهـادا والجهاد فريضـة ... وقـد هب ايقاظ اليها ونـوم
وكم قمتقبل الحربفي القوممنذرا ... بما ستجر الحرب يوما عليهـم
اذا انا لـم اغضب لديني غيرة ... فلا رضيت عني شموس وأنجـم
وان انا لم اغضب لقومي حميـة ... فـلا هاشم مني ولا انا منهـم

٣ ـ ماذا كانت وماذا صارت

كانت امانـي ... صـارت غنائـم
تقاسموهـا ... والشعب نائـم
القت عرشا علـى الجماجـم ... تبغـي حياة الصيد الاكـارم
يا ابن الفراتين قـد كنت حالم ... فعش ذليـلا ينوم القائـم
تقاسموها وانت نائم
دم الضحايـا استحال خمرا ... لمـن تولـوا عليـك امـرا
تشـوآن هـذا وتلـك سكرى ... وانت تسقى يـا شعب صبرا
تقاسموها وانت نائم
اذكـر دمـاء بالاحتلال ... سالت تباعا فـوق الرمـال
وفي سهول وفـي جبـال ... افق رويدا يـا بـن الشمال
تقاسموها وانت نائم
رحماك ربـي لبرج بابـل ... طغى عليـه سيـل الاسافـل
والبسوه ثـوب الرذائـل ... يا شعب يـا وارث الفضائل
تقاسموه وانت نائم

٤ ـ نفد الصبر

رب هـذا الشعب مـن يرحمه ... فلقـد ساموه خسفا ودمـارا
رب هـذا الدين مـن ينصره ... فلقـد سامـوه ذلا وصغـارا
رب هـذا العرض مـن يستره ... قـد غدا عـارا علينـا وشنـارا
رب هـذا الـذل مـن يرفعـه ... قـد حملناه اضطرارا لا اختيارا
رب رحمـاك اليـك المشتكى ... نفد الصبر فمـا نرجو اصطبـارا
يـا سراة الحي يـا اسد الشرى ... يـا حماة الديـن سـرا وجهارا
ان مـوت العـز خير للفتـى ... مـن حياة الذل ان رام الفخـارا
قـد مللنـا مـن حيـاة ملئت ... رغـم حب الخيـر سـرا وشرارا
قـد خسرنا الدين والدنيا معـا ... افنبغي فـوق ذا الخسر خسارا
فبـدار يـا بني الديـن النبـي ... حفظ ديـن اللـه باللـه بـدارا
وانتصارا يـا غطاريف الحمـى ... لحقـوق غصبت منـا انتصارا

٥ ـ صيحة السماء وصدى الضمير

الصرخة الاولى قال فيها :

ايها الغرب جئت شيئا فريـا
ما علمنا غير (الوصي[1]) وصيا
قسمـا بالقرآن والانجيـل ... لسنـا نرضى وصاية لقبيل
او نسيل الدماء مثل السيول ... البعـد الوصي زوج البتول
نحـن نرضى بالانكليز وصيا ؟

وهذه الصرخة طويلة ختمها بقوله :

مثل وادي السلام وادي العقيق ... كم لنا من مهنـد هناك وليـق
وعقـوق الاوطان شر العقـوق ... البعـد الصديـق والفـاروق
والذي صاهر الرسول النبيـا
نحـن نرضى بالانكليز وصيـا

الصرخة الثانية وقال فيها :

اشهدوا يا اهل الثرى والثريا
قد ابت شيعة الوصي الوصيا
قـد نكثنا عهد النبي لدينـا ... واحتملنا العـا وعـارا وشينـا
ان قبلنـا وصايـة وغوينـا ... افلا يسخـط الوصـي علينـا
ان رضينـا بالانكليـز وصيـا

الصرخة الثالثة ، وقال فيها :

لست منا ولـم تكـن منك شيا
فلمـاذا تكـون فينـا وصيـا
لـم تكن يـا ابن لنـدن علويـا ... هاشميـا ولـم تكـن قرشيـا
لا ولا مسلمـا ولا عربيـا ... من بنـي قومنـا ولا شرقيـا
فلمـاذا تكـون فينـا وصيـا ؟
ليس مـا بيننـا وبينـك جامـع ... وطـن او قوميـة او جامـع
فرقت بيننـا جميـع الجوامع ... حين شان المتبوع شان التابـع
فلمـاذا تكـون فينـا وصيـا ؟
في سبيل استقلالنا قـد نكثنـا ... عهد اخـوان ديننـا يـوم ثرنـا
كم دمـا منـا ومنهم سفكنـا ... غير نجـم استقلالنـا مـا رصدنا
فلمـاذا تكـون فينـا وصيـا ؟

٦ ـ ما كان جورك في حسابي

هب مـن ثناياك العذاب ... شيئا يخفف مـن مصابي
يـا ابيض الوجنات كم ... سودت صحفـا من عتاب
رفقـا بصب صابـر ... زودتـه من كاس صاب
يـا جائرا فـي حكمـه ... مـا كان جورك في حسابي
ايـن ارتياحك للهوى ... حتـى كانك في صابي
ايـن انشراحك لانشراحي ... واضطرابـك لا ـ اضطرابي
الثـان ثالثنـا الهوى ... يرمي الـى رفـع الحجاب
نفسي الفـداء لليلة ... تفدى بايـام الشبـاب
يـا معرضا بعـد الرضى ... يـا ساليا بعـد التصابي

---

١ ـ يقصد بذلك الامام علي بن ابي طالب (ع) .

راقصة باليه

●

حلقت في الجو اسراب العيون … هائمات شفهـا بـرح الحنين
حومت حولـك تبغي رشفـة … مـن اياديك ومـن ثغر ضنين
كلمـا اوصدت بابـا اقبلت … تسال الليل عـن الصبح المبين
اسدلي حولـك ليلا حالكـا … من ليالي الصد يقصي الطامعين
وامنحي الناس سلاما عابـرا … ليس في الدنيا على الحسن امين
واهمسي بالرقص همسا فلكم … افصح الرقص عن المعنى الدفين

فيك دفء الشمس في راد الضحى … ومن البدر سنـا فوق الجبين
فيك مـن ليلـي سكون هائم … ومـن الفجر ضياء يستبين
فيك مـن زهـر الربى نضرته … ومن الانسام عطـر الياسمين
ومـن الدنيـا خداع شائـق … يسر البلـوى ونادى الطامعين
صفق الحسن وقال استبقوا … ها هنـا الري لقـوم ظامئين

اخطري ما شئت في ظل الصبا … واخطري ما شئت في قلبي الطعين
وانثري الاوهام فـي احلامنا … ترقص الفرحة بـين الهائمين
وابسمي نلقى المنى هفافـة … بجناحي صابر فـي الصابرين
واسلمي من لفحة الحب الذي … هو في الاقدار كالغيب الجنين

يا لفرع شاع فـي اسلاكـه … رائـق التبـر ينادي العابثين
انـه تـاج علـى مفرقـه … عـذب الله قلوب الآثمين
يـا رعاك الله مـن فاتنـة … ايقظت في الناس ايمانا ودين
عبدوا فـي حسنها خالقهـا … انما الحسن جـزاء العابدين
فمـري الاثم فينـا يرعوي … كلنـا للحسن نسعـى طائعين
وانـا عنـد التقـى اقربهم … انني في الحب ادنـى المتقين

القاهرة … احمد عبد المجيد

حسبي وحسبك ما جرى … بيني وبينك مـن عتـاب
لـئني فيك دمـع سائـل … واراك تبخـل بالجـواب
مـا كنت تبصر ساعـة … لو انـه بـك بعض ما بي
بـي منـك مـا لـو كـان بالافـلاك خـرت للتـراب

٧ ـ سلطان الهـوى

لقد ملكت قلبي فاضحى اسيرها … مليكة ربـات الخـدور الكواعب
اذا خطرت في موكب مـن لداتها … فما هي الا البدر وسط الكواكب
خضعت لسلطان الهوى مذ عرفتها … وما ذر نهداها وما طر شاربـي
صغيرين نلهـو بالدمـى فكانـنا … بافق الصبا نجمان في ثوب لاعب
وبالرغم منا فرق الدهر بيننـا … ولكـن حفظنا الود رغم النوائب
شبينا وشبنا والهوى يعقب الهوى … وما خان منا صاحب عهد صاحب
فيا حبذا عهد الصبابة والصبـا … ولا حبذا عهـد الاماني الكواذب
لعل يـد الايـام تجمع شملنـا … وتنسج ثوب الوصل كف الغياهب

٨ ـ لعلك جئت من وطني

الا يـا نسمـة هبت سحيرا … بربـك عـن مهبك خبرينـي
لعلك جئت مـن وطني المفدى … فقـد حركت شيئا مـن شجوني
ويـا ازهـار آمـالي لمـاذا … ذويت وقد سقيتك مـن جفوني

واخيرا : فهذا هو الشاعر الكبير المرحوم السيد محمد حبيب العبيدي ، مفتي الموصل ، وتلك هي حياته وهذه هي نماذج من شعره ، نرجـو ان يكـون القـارىء الكريم قد اخذ فكرة عامة عنه ، وافاد مما قدمناه لـه من معلومات في هذه الصفحات وهو ما نريد والسـلام .

بغداد … عبد الرزاق الهلالي





بقلم سعيد ابو الحسن



اتردد عليه في مخزنه الكبير في مركز احدى المحافظات السورية . في هذا المخزن ـ كالعادة ـ كان الانسان يجد كل شيء : من الابرة حتى السرير ، ومن اغلى الاقمشة حتى خيط القنب . فقد كان يطيب لي التحدث اليه وسماعه وهو يتكلم ، كان من هذا النوع الرزين بالعلم ، المختمر بالتجربة ، الناضج بالثقافة الحقيقية علما وعملا . ولكنه كان يعمل بالتجارة لان امثاله كانوا يبتعدون عن الوظيفة ايام الانتداب الفرنسي ويسعون الى العيش عن طريق الاعمال الحرة ـ وكان والده تاجرا قبله ، فامتهن هو التجارة، واشتهر بالاستقامة ، والقناعة بالربح اليسير ، والابتعاد عن التلاعب بالاسعار واستغلال الزبن بالمساومة وحلف الايمان الكاذبة ، كما يفعل الكثيرون . لذلك كثر زبنه وزادت ارباحه واستطاع ان يؤمن العيش الكريم لذويه وان يسخو في المناسبات القومية والوطنية بمبالغ كبيرة لا يتحدث عنها ولو تلميحا.

ولاحظت المرة بعد المرة انه ، كلما صعب عليه التفاهم مع شخص يريد ان يساوم والسعر محدود ، يريد ان يقول عن الحرير انه مخمل، وعن الخيش انه كتان ، كان يردد احدى كلمتين : « نقلنا الهند ، يا سيدي ! » او « مطرة ، يا سيدي ! » ـ وصممت يوما على سؤاله عن هاتين الكلمتين ، فسألته هل هما تميمتان يحتمي بهما من الاغبياء ، والثقلاء ، والمماحكين ، ام ان وراء كل كلمة منهما سرا يعرفه هو وحده ، فاشرق وجهه بابتسامة حلوة ، وترك لمعاونه العمل ، وجلس فوق كرسي الى جانبي ، وتنفس تنفسا عميقا وقال :

ـ « انت تعلم ، ولا شك ، ان اسوا اصناف الجاهلين ، صنف الجاهل الذي « لا يدري ولا يدري انه لا يدري » حسب تعبير ابن وريد، او صنف « الجاهل الذي لا يقر بجهله » حسب تعبيري الخاص . وقد نعته ابن وريد بانه الاحمق الذي يجب تركه وعدم محاولة اصلاحه، فاصلاحه مستحيل .

من اجل هذا تراني،عندما اصطدم بهذا النوع من الناس ، انهي الحوار والزم الصمت واكف عن بذل اي مجهود اضافي . اما لماذا اغلف انهاء الحوار بعبارة « مطرة » او « نقلنا الهند » فلذلك قصة ، بل قصتان :

فلقد كنت ذات يوم اقوم بزيارة احد الاصدقاء . وصادفت لديه احد زعماء الاحياء . وكان من هذا النوع المنتفخ الاوداج ، المكتنز لحما وشحما ، الذي يتنفس من فمه وانفه معا ، ويتحرك في صعوبة، وكان مغرورا بنفسه يحسب ان العلم يرافق المركز المالي او الاجتماعي فما دام هو زعيم حي فيجب ان يكون اعلم اهل الحي واذكاهم ، وان تكون كلمته زعيمة الكلام على مذهب (كلام الملوك ملوك الكلام). وكان قبل دخولي ، قد بدا حديثا عن الصين والهند ، وسعة كل منهما وعدد سكانهما ـ وحين يتحدث عن موقع كل منهما من الاخرى لاحظت انه يقول الهند تقع الى الشمال والصين الى الجنوب ، وتكرر ذلك عدة مرات فاعتقدت انه من واجبي ان الفت نظر الزعيم المحترم الى هذا الخطأ غير المقصود ، وفي منتهى اللطف واللباقة ، ابديت له الملاحظة، مشيرا الى انه ربما كان يقصد العكس، وان الخطأ خطأ لفظي مجرد. ولكن دهشتي كانت عظيمة عندما رايته يتمسك برايه ويدافع عن صحته ، نافيا ان ما قاله كان نتيجة خطأ لفظي ، مصرا على ان ما قاله هو الصواب ، وانه لا يسمح لاحد ان يصحح له رايه وهو من هو !..

عند هذا اعتبرت ان لا فائدة من متابعة النقاش والتزمت الصمت التام . وبعدما انصرف الزعيم الخطير ، سألني صديقي صاحب الدار ، ما هو سبب تراجعي وسكوتي ـ خلافا للعادة ـ وانا على حق ـ فقلت :

ـ « اسمع ، يا صديقي ، اهون علي ان انقل الهند من الجنوب الى الشمال من ان اقنع مثل هذا الجاهل المغفل في جهله ».

هذا هو اساس عبارة « نقلنا الهند » .

اما العبارة الثانية « المطرة » فلها قصة اخرى :

كنا مرة نجتاز فترة من فترات الارهاب ، التي طالما عرفها شعبنا في حياته النضالية الطويلة . ومن المعروف ان افظع وسائل الارهاب هي مفاجأة البريء المنصرف الى عمله وكفاحه من اجل العيش بتهمة كاذبة بقصد اذلاله وهدر كرامته ، او تحصيل ضرائب وهمية من مواطنين غير مدينين بها ، او فرض غرامات جماعية على قرية بكاملها بحجة ان مخالفة اقترفت بجوارها ، او التذرع بهذا كله من اجل سوق المواطنين الى السجون وابقائهم فيها اشهرا بلا محاكمة وهم رهن التعذيب الجسدي والنفسي.

ومن الطبيعي ان يختار لتنفيذ

هذه الاعمال رجال اجلاف لهم نفسية اللصوص وقطاع الطرق وفيهم جوع مزمن يجعلهم يخافون دائمـــا ان يفقدوا وظيفتهم فيعودوا الى جوعهم ولذلك تراهم يصعدون غطرستـهم ووحشيتهم باستمرار ارضـــاء لسادتهم تماما كما تفعل كلاب الصيد حين تضحي حياتها من اجل جلب الطرائد لصاحبها .

كنا في احدى تلك الفترات حين دعينا ، ظهر ذات يوم ، الى مضافة المختار . وكان لديه ضابط مـن ضباط الحرس السيار ومعه عـدد من الجنود . وحينما اجتمع العـدد المطلوب من المواطنين المسؤولين في القرية ابلغهم الضابط انه قـادم ليجبي غرامة مقدارها كذا ، وانه لن يبرح وجنوده القرية الا بعد قبض الغرامة بكاملها . وكان معه جـابٍ يحمل حقيبة يدوية فيها سجـلات وايصالات لكي تتخذ العملية مظهر الامر المشروع . وكان القرويـون يعرفون ماذا يعني قوله : « لن ابرح القرية وجنودي الا ...» ، كانـوا يعرفون ان هذا يعني ان كل مـا في القرية من جداء وحمـلان وديـوك ستذبح خلال تلك الاقامة لتقـدم طعاما للضيوف المحترمين ، وان كل ما في البيوت من شعير ستستهلكه ركائب الضيوف ، وان كل هـذا لا يغني دفع الغرامة بالتمام والكمال.

وكان الناس يجادلون ، يحاولـون اقناع الضابط بعدم قدرتهم عـلى الدفع :

ــ من اين تريدنا ان نجمع هـذا المبلغ في سنة القحط هذه ؟ ليـس لدينا مؤونتنا ولا بذارنا ولا علـف لمواشينا ، اتقوا الله فينا ، يـا نـاس !

ــ نحن ابرياء ، لم تصدر عنـا مخالفة ، ولا اقترفنا جرما ، لماذا تغرموننا ؟

ــ اعرفوا من هو المخالف وعاقبوه، اشنقوه اذا شئتم ، ولكن لا تظلموا الابرياء !

ــ ما هذه المصيبة ؟ هاجر نصف سكان القرية الى اميركا، او افريقيا، او لبنان ، أفتريدون ان يهـاجر النصف الباقي؟

وكان الضابط يزداد اصرارا، واذ يرد على كل متكلم يمزج التهديـد بالشتائم ، ويخرج كل ذلك بصوت هادر كالرعد . حتى تصبب جسمه عرقا غزيرا من شدة الجهد . وفيما هو في اوج احتدامه اذ هو يلتفت الى احد الحاضرين ويأمره قائلا :

ــ « هات المطرة ، يا ولد ! »

والتفتنا جميعا الى الجهة التـي كان يشير بيده اليها ، فلم يكـن فيها مطرة ، ولكن ...

ووقفت مخاطبا الاهلين: «لينصرف كل منا الى بيته ، ولنعد بعد ساعة واحدة ، لا اكثر ، وكل منا حامل نصيبه من الغرامة ! هلموا ، يـا قوم ، فانا اخبر منكم ! »

وسالوني عن سبب تبدلي هـذا وقبولي بالدفع بعدما كنت ادافع عن الاهلين ، فاجبتهم : « انني سأشرح لكم الامر خـارجـا . اما الآن فلننصرف ! »

وحين صرنا خارج المضافـة ، تجمعوا حوالي ليعرفوا سر تبدلـي، فقلت لهم :

ــ « يا جماعة ! الم تروا ما هو الشيء الذي كان معلقا على الجدار في احدى زوايا المضافة والذي كان الضابط يسميه « مطرة »؟ فالذي لا يفرق بين « الحقنة » المعـدة لغسيل المعدة ، و« المطرة » المعدة للشرب، لا يجوز ان نناقشه بالمنطق والمعقول ، ولا يجوز ان نعانـده . فاولى بنا دفع الغرامة واتقاء شره وشر زبانيته .»

ــ هذه ، يا صديقي قصة«المطرة» فهي مع كلمة «نقلنا الهند!» توفران علي الكثير من الوقت والجهـد . فاذا لم نفد من تجارب حياتنا التي مرت ، فلا نكون جديرين بالحيـاة. وصدقني انني اردد هاتين الكلمتين عشرات المرات في اليوم ، لان امثال ضابط الحرس السيار ذاك ، مـا زالوا كثرة تعـج بهم دنيانـا الحاضرة ! ...

دمشق   سعيد ابو الحسن

الشوق العائد

★

خفق القلب حين شام بعينيـك بريقـا يلـوح أول وهلـة
وطفى الشوق والحنين باعراقي وفي الروح مـن حديثك شعلة
اهو الحب يـا نعيمي فانـي   شارد الفكر في الاماني المضلة
يا رفيف الرؤى بافـق حياتي   وشذا الذكريات يسكب ظلـه
هل الى ثغرك الحبيب المفدى   من رجاء فقـد ظمئت لنهلـة
عربدت صبوتي وجن اشتهائي   وسبتني شفاهـك المضمحلـة
كيف ترضين لي غربة الروح يا   انس قلبي عبـر الحياة المملة
في سبيل الغرام ما انـا القي   فارحمي مغرمـا يعيش بذلـه
كل ما في الوجود لـو خيروني   يا حياتي فدى لمقلة « نهلـة »

بغـداد   عبد الخالق فريد

يوميات مقاتل في الجبهة

محمود محمد كلزي

حلب ـ سورية



السبت ٦ ـ ١٠ ـ ١٩٧٢

منذ اعوام تولت وانا في خندقي
انتظر اليوم الذي نثار فيه للكرامه
منذ اعوام مضت ..
انتظر اللحظة اسقيها عيوني ..
واشد العزم .. امتص بقايا الصبر ..
في صدري .. واقتات الشهامه ..
اعيني زاغت .. وشاهت اغنياتي ..
وانا ارنو الـى الافق ..
واعدائي ينامون على ريش النعامه ..
كلما لاح على الافق شعاع ..
خنق البغي تباشير السنى ..
واتلفت نيرانه تحرق اغصانا من الزيتون
في ارضي .. وفي وجهي تميت الابتسامه ..
كلما رف وراء الافق سرب من حمام ..
اسقطوه برصاص الغدر .. فوق الشاطىء
الحالم بالحب .. وانداء السلامه ..
ساعة الصفر دنت ..
يا حالة اللاسلم واللاحرب كوني لهبا ..
آن لهذا الفارس المصلوب ان يرمي زمامه ..
وتفجر ايها البركان في صدري حقدا ..
ذبحوا اليوم على صدري الحمامه ..

الاحد ٧ منـه

انني اليـوم اقاتـل ..
حقـدي اليـوم يقاتل ..
اصراري اليـوم يقاتل ..
حبي للارض المحتلة .. للزيتون ..
وللكـرم المسروق .. يقاتـل ..
صار الصبر بصدري حقدا ..
وغـدا الحـب قنابـل ..
وغـدا النـور جحيمـا ..
ينبع من ارضي .. والصمت زلازل ..
وزحفت الـى ارضي الثمها ..
واعانق احجـار جبالي ..
والرمل واشجار بلادي ..
ونوارس تبكي .. وعنادل ..
وحملت جراحـي ..
وجراحي في شمس حزيران تنزت ..
ولمطت في قبضة تشرين .. اعصار ..
يجرف عـن ارضي الثلج ..
لتنبت عشبا اخضر .. يضحك للمطر الهاطل
الوادي يخبـر عنهم ..
والفرقـد .. والصخر ..
واشواك تلقا اعينهم .. والصبار ..

والاصبع فوق زنادي اصرار ..
لـن يبقي في ارضي باطـل ..
لـن يبقي في ارضي باطـل ..

الاثنين ٨ منه

اني على ارضي السليبه ..
انـي اضم ترابهـا ..
في اعيني .. في اضلعي ..
واضم جرحي الراعف الهدار ..
ارنو للتلال الخضر .. للدار الحبيبه ..
ما زلت اوقن ان درب النصر ..
مزروع بقنبلـة ..
واني اليوم محتضن لهيبه ..
بارودتي زادي ..
وراحلتي .. قنابلي العبيبه ..

الثلاثاء ٩ منه

اراك اليـوم يا وطني ..
اراك اليوم تعبر جسر مأساتي ..
تمـزق آخر الكلمات ..
تخنق حزني المدفون ..
تلبـح كـل آهاتـي ..
اراك اليوم تنصب الف جسر ..
للعبور .. الى ضفاف النصر ..
اراك اليوم في سيناء .. في الجولان ..
تعبـر مـن حدود القهـر ..
وتصنع مـن دموع الليـل ..
مـن نـور العيـون ..
ومـن دمـاء الحر ..
خيـوط الفجـر ..
وتصنع الف فجـر للغـد الآتي ..

الاربعاء ١٠ منه

مـا زلت اقاتـل ..
لن اتراجع عن شبر من وطني ..
وسأسقي كـل دروبي ..
بدمائي .. ودماء اخي ورفيقي ..
دمـوع الفـرح ..
بعيني امـي .. وابي ..
كي تنبت غـارا .. وسنابل ..
مـا دمـت اقاتـل ..
مـا دمـت اقاتـل ..

الخميس ١١ منه

سقطت خفافيش الظلام ..
ودمشق عين لـن تنام ..
وهوت على ارض البطولة ..
كالسراب (١) .. كومضة البرق الخلوب ..
لتستحيل على مرابعنا رمادا او حطام ..
وتناثرت .. مزقا .. واشباحا (٢) ..
تلاشت باندلاع النور من وهج الضرام ..
هجمت كأسراب الذباب ..
ينوشها غضب النسور ..
يبث في اسرابها ظمأ الحمام ..
الارض تزخر بالسعير ..
من القرى .. ومن الجبال .. من الحقول ..
من المصانع .. من شآبيب الغمام ..
تنقض كالطير الابابيل النسور ..
عـلى البغاث ..
عيوننا متطلعات للسماء ..
تصب جـام الانتقـام ..
الارض ظمأى .. والنخيل ..
لقطرة المطـر البخيل ..
تسيل فوق العشب يرشفها الرغام ..
قد ازهر الليمون يا وطني ..
وعادت للمغاني .. كل اسراب الحمام .

الجمعة ١٢ منه

عـاد التتار ..
يحلمون في الصباح ..
يحملون للحياة في اكفهم دمار ..
عيونهم .. مصلوبة على الجدار ..
مصلوبة علـى بقية انتصار ..
عـاد التتار ..
جنود « هولاكو » الذين مزقوا الاسفار ..
واغرقوها في القنال ..
فـي ربـى الجولان ..
في سيناء في ارض الفخار ..
لا ... لـن يمروا ...
بردى مقبـرة الغزاة ..
قاسيون مرتـع النجوم ..
ميسلون .. في عيونهم صبار ..

---

(١) السراب ترجمة الميراج ، (٢) الشبح ترجمة الفانتوم

حلب — محمود محمد كلزي

الشاعر اسماعيل باشا صبري

بقلم سمير وهبي

* * *

منذ خمسين سنة . وفي يوم ٢١ مارس من عام ١٩٢٣ توفي الشاعر اسماعيل باشا صبري بالغا من العمر ٦٩ سنة ، قضى جزءا كبيرا منها في الوظيفة العامة وفي قرض الشعر .

وبالاطلاع على ملف خدمته الحكومية المحفوظ بدار المحفوظات المصرية تتبين لنا التواريخ الهامة في حياته العملية :

ولد اسماعيل صبري في القاهرة في اليوم السادس عشر من فبراير ١٨٥٤ (١٨ شعبان عام ١٢٧٠هـ) والتحق بمدرسة المبتديان في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٦٦ (١٢ جمادى الثاني عام ١٢٨٣ هـ) ، ثم بمدرستي التجهيز والادارة فاتم دراسته بهما في ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٧٤ (١١ شوال ١٢٩١ هـ) ، وتخرج في تلك المدرسة الاخيرة التي تحولت فيما بعد لتكون اول مدرسة حقوق في مصر ، وهو في العشرين من العمر . ثم التحق بعد ذلك بالبعثة المصرية الى فرنسا ، فدرس الحقوق بجامعة ايكس AIX حيث تخرج في ١٣ — ٤ — ١٨٧٨ بعد ان نال درجة الليسانس منها .

ثم تمضي به رحلة الحياة ، فبدأ مساعدا للنيابة العامة بالمحاكم المختلطة بمحكمة مصر الابتدائية في ١١ يوليو ١٨٧٨ ، ثم وكيلا بمحكمة المنصورة المختلطة في ١٧ فبراير سنة ١٨٨٢ ، ثم بمحكمة طنطا الابتدائية الاهلية في اول يناير من عام ١٨٨٤ ، ثم رئيسا لمحكمة بنها في ١٣ مارس ١٨٨٦ ، فرئيسا لمحكمة الاسكندرية الاهلية في ٢٢ يونيو ١٨٨٦ . وانتقل بعد ذلك الى القضاء العالي بمحكمة الاستئناف الاهلية بمصر في ٢٩ نوفمبر ١٨٩١ ، ثم بوظيفة نائب عمومي عن الحضرة الخديوية في ٢١ ابريل من عام ١٨٩٥ . وفي اول مارس من العام التالي عين محافظا للاسكندرية ، فظل بها نحو ثلاث سنوات ونصف، قبل ان يعين وكيلا لنظارة الحقانية (العدل) في ٣ نوفمبر ١٨٩٩ . وظل بوظيفته هذه حتى استقال منها في ٢٨ فبراير ١٩٠٧ وهو في الثالثة والخمسين من عمره . وكانت استقالته من الوظيفة انه بلغ المرتب الكامل لها ، فطلب احالته الى المعاش للتفرغ الكامل للادب .

وعاش في قصر له بالقاهرة يقع بشارع القصر العيني امام كلية الطب .. الى ان لبى نداء ربه ، بعد اصابته بذبحة صدرية في اليوم الحادي والعشرين من مارس سنة ١٩٢٣ ودفن بالامام الشافعي .

واذا كنا قد اطنبنا بعض الشيء في سرد مراحل حياته ، فلكي نبين ان حياته كانت مليئة بالعمل والمسؤوليات ، وقد شاء ان يؤدي عمله على خير وجه ، مما جعل طريق الترقي امامه مفتوحا على الدوام ، فانعمت عليه الدولة بالاوسمة والنياشين . ونال من التقدير ارفعه ، حتى لقب ، وهو في حياته ، بشيخ الشعراء ، خاصة وان بيته كان مفتوحا للادباء واهل الفكر ورجال الفن . وكان حافظ ابراهيم من بين الذين يغشون مجلسه ويخالطونه، بل ويعرضون عليه اشعارهم، وقد اعترف بذلك حافظ في رثائه ، اذ قال :

لقد كنت اغشاه في داره ... واناديه فيها زهـا والزهر
واعرض شعري على مسمع ... لطيف يحس نبو الوتر

اما شوقي ، فلم ينكر فضل اسماعيل صبري عليه وقد اخذ منه .. وتماما كما تعلم اسماعيل صبري من البارودي امام الشعراء في اثناء فترة شبابه ، كذلك تعلم شوقي من اسماعيل صبري الذي كان يكبره سنا ومقاما. وقد قال شوقي في ذلك :

ايام امرح في غبارك ناشئا ... نهج المهار على غبار خصاف
اتعلم الغايات كيف ترام في ... مضمار فضل او مجال قواف

فشوقي يقول بانه في ايام نشأته ، نهج في سبيل صبري ، تماما كما كانت الفرسة العربية « خصاف » تجري في مضمار السباق !

وفي مواضع اخرى من قصيدة شوقي ، يطلق عليه بانه « الخليل الوافي » ، وانه قاضي القضاة . يقول شوقي في رثائه :

قاضي القضاة جرت عليه قضية ... للموت ليس لهـا من استئناف

وفي الحقيقة ، شهد جميع من عرفوه على دماثة خلقه .. ولطف معشره ولين عريكته .. فكان محبوبا من الجميع . شهد بذلك معاصروه ، ومنهم على سبيل المثال عثمان باشا مرتضى ، الذي اشاد بثلاث صفات كانت متوفرة فيه هي (حبه للحق وحبه للصراحة وحبه للكرامة) ، وكان من بين من عرفوه الدكتور محمد صبري (السوربوني) الذي قال عنه : « امتاز هذا الرجل في حياته بحب الصراحة ، كما امتاز الشاعر في شعره بالشعور . وهل الصراحة غير النطق بالشعور ، فنظم في الحب ، والحب اصدق عاطفة . وامتاز الرجل بحب الحق ، كما امتاز الشاعر بالحكمة .. وهل الحكمة غير حب الحقيقة ؟ نظم في الموت وهو ابلغ حقيقة ، وامتاز الرجل بحب الكرامة ، كما امتاز بالحماسة . والرجل الابي يغار على كرامته ، فنظم في الوطن .. والوطن اشرف ما يتحمس له المرء اذا غار على كرامته . هذه العوامل الثلاثة التي انطقته بالشعر . وهي اذا رسخ عامل واحد منها في صدر الانسان صيره شاعرا ، فكيف اذا اجتمعت الثلاثة لواحد ؟ »

هذا كلام الدكتور محمد صبري عن صديقه

اسماعيل باشا صبري وقد عرفه معرفة وثيقة في مدة الثلاث عشرة سنة السابقة على وفاته . حتى اذا ما قضى نحبه سارع هذا الصديق الى تاليف كتاب عنه في نفس سنة وفاته .

ومن الذين ذكروه بالخير نجد الشاعر خليل مطران، الذي اعترف ايضا باستاذيته له . قال عنه :

اي صاحبي لقد مضى استاذنا البر الحبيب
وبقي قربي بيننا ... كل الى كل قريب
الشعر الفنا معا ... اختلف الغريق ولا الجنيب

لم يقل صبري الشعر طلبا للمجد او ابتغاء منفعة ، وانما انشده من فرط رقة مشاعره . لهذا السبب اتسم شعره بالصدق والاصالة . وكثيرا ما ارتجله وهو ما زال طالبا بالمدارس . دعي مرة في حفل غنى فيه (عبده الحامولي) فلم تعجبه كلمات الاغاني واذا بالمغني يقول بانه على استعداد للتلحين اذا ما جادت قريحته بقصيدة. فلم ينته الحفل ، حتى كان صبري قد نظم كلمات رقيقة يقول فيها :

قده امير الاغصان ... من غير مكابر
وورد خده سلطان ... على الازاهر
دا الحب كله اشجان ... يا قلب حاذر
والصد ويا الهجران ... جزا الخاطر

وقد غنى هذا الدور ، فيما بعد ، المطرب صالح عبد الحي .

وله ادوار غنائية ، صاغها من الشعر الغنائي الرقيق ، مثل :

يا قلب اد انت حبيب ... ورجعت تندم
صبحت تشكي ما لاقيت ... لك حد يرحم
صدقت قولي ورايت ... ذل المتيم
ياما نصحتك ونهيت ... لو كنت تفهم

او قوله :

اعرض لحسنك اوراق ... واكتب وادون
وابات صريع الاشواق ... واحسب واخمن
واهجر وصبابة وفراق ... يا رب هون
وارحم قلوب العشاق ... دا شيء يجنن !

ومن اغانيه ايضا ما لحنه محمد عثمان ويغنيه اليوم كارم محمود :

الحلو لما انعطف ... اخجل جميع الغصون
والخد - آه - ما انقطف ... ورده بغير العيون
لما بدا لي الحبيب ... يشبه لبدر التمام
صار الفؤاد في لهيب ... في الحال وهام بالقوام

ارحم يا سيد الملاح ... مغرم ضناه البعاد
دمعه على الخد ساح ... من حر نار الفؤاد
الحب حاله عجب ... يلذ فيه العذاب
ذكر الحبيب فيه طرب ... ودمع عينه شراب

كان اسماعيل صبري مغرما بالمقطوعات القصيرة . ولهذا السبب نجد اغلب قصائده لا تتجاوز عدة ابيات تتراوح بين الخمسة والعشرة ، او دون ذلك بكثير . وكثيرا ما كانت مقطوعاته لا تتجاوز البيتين . وكانت براعته تكمن في شحن هذين البيتين بالمعاني الزاخرة فضلا عن رقة اللفظ . فهو من المغرمين بالبحتري وقد اقتفى اثره ، فجاء شعره سهل الديباجة مع احكام صنعته . ووصفه خليل مطران بانه « شديد النقد لشعره ، كثير التبديل والتحويل فيه ، حتى اذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الاسلوب اهمله ثم نسيه » . وبرع في موضوعين ضرب كثيرا على وترهما . وهي الحكمة والوجدان . لنستمع اليه في مقطوعته عن (الكرامة) ، وهي من بيتين :

لكسرة من رغيف خبز ... تودم بالملح والكرامة
اشهى الى الحر من طعام ... يختم بالشهد والملامة

فالكلام هنا بعيد عن التجريد اللفظي والنصح ، وانما يتخلله وصف الطعام مع المقارنة بحالتي الكرامة والذل ، فضلا عن المحسنات البديعية .

او انظر الى ذلك البيتين الزاخرين بالوصف ، حتى لكان كل شطرة فيهما تعبر عن مشهد تمثيلي كامل . كتب عن الصداقة يقول :

اذا خانني خل قديم وعقني ... وفوقت يوما في مقاتله سهمي
تعرض طيف الود بيني وبينه ... فكسر سهمي فانثنيت ولم ارم

ففي الشطرة الاولى ، افترض ان حبل الوداد قد انفصم بينه وبين الصديق ، وجاءت القطيعة على اثر عقوق من جانب صديقه .. حتى اذا انتقلنا الى الشطرة الثانية وجدنا الشاعر يستعد للانتقام وقد اخرج سهامه بعدها لمجازاة الشر بالشر ، ومقابلة العقوق بمثله ، فان تفويق السهم معناه ان يضع الرامي ، على الوتر ، شقه الموجود في راسه ، استعدادا للنزال .. غير ان الشاعر في الشطرة الثالثة يتذكر ما كان بينه وبين هذا الصديق من ود سالف ومحبة قديمة تقف بينهما كالطيف ، حتى اذا ما استعاد صوت الماضي ، عمد الى سهامه وكسرها ، وقد ملات الذكريات قلبه ، فعفا عن الصديق العاق ونسي الاساءة . ان براعة هذا الشاعر تكمن في دقة التصوير فحكمته لا يقولها بالفاظ مجردة ، وانما يكسوها بالصور المرئية ..

وفي باب الحكمة ، كانت له كلمات بليغة صاغها في اسلوب رائع ساحر ، وكانها من جوامع الكلم . كتب :

احب التوحيد في ثلاثة : « الله ، والمبدأ والمراة »
واحب الحرية في ثلاثة : « حرية المراة في ظل زوجها
وحرية الرجل تحت راية الوطن
وحرية الوطن في ظل الله » .

وجدير بالذكر ان « صبريا » بدأ قرض الشعر في الموضوعات التي اعتاد معاصروه قول الشعر فيها ، مثل مدح الخديوي والمناسبات . وكان في بدايته متكلفا .. ولكن ما ان تمضي السنون حتى يتحرر ويميل شعره الى الاصالة ، فيكشف شعره الوجداني عن رقة متاصلة وفهم دقيق لروح الشعب المصري وقرب من اسلوبهم العامي .

والى جانب شعره الغنائي ، نجد في ديوانه شعرا وطنيا وآخر فكاهيا ومعارضات ، مثل تلك المعارضة لقصيدة ابي الحسن الحصري المعروفة :

يا ليل الصب متى غده وقيام الساعة موعده

وله شعر صوفي يكرر فيه دائما خشيته في الله والامل في عفوه . أنشد يقول :

خشيتك حتى قيل اني لم اثق بانك تعفو عن كثير وترحم
واملت حتى قيل ليس بخائف من الله ان تشوى الوجوه جهنم
فشأني في حالي يا رب حيرة بها انت من دون البرية اعلم
اقلني من الشك الذي قد احاطني فشأني في حالي يا رب مبهم
مر الحجب ترفع عنك استقبل الهدى صريحا وينهج نهج الحق مجرم

فهو في قصيدته هذه يرجو من الله ان يكشف له عن حقيقته حتى يكون على بينة من أمره ، فيهتدي ان كان ضالا ويحسن ان كان مسيئا .

ثم يقول في وجود الله ، وقد وجد ان خلق الانسان برهان على ذلك :

تعالى الله لا يعلم كنه الله انسان
ابحث عنه في واد ومنه الكون ملآن
اتنكره وانت عليه ـ لو فكرت ـ برهان

وعندما كان محافظا بالاسكندرية ، عام ١٨٩٧ ، اصيب اسماعيل صبري برضوض على اثر اصطدام القطار به وهو في طريقه الى العاصمة ، فغاب عن الوعي لمدة اسبوعين .. فلما أفاق من غيبوبته الطويلة تمنى ان يكون الموت قد طواه فعلا .. فنظم في هذا المعنى بيتين مشهورين :

يا موت هانذا فخذ ما ابقت الايام مني
بيني وبينك خطوة ان تخطها فرجت عني

ولما كان الموت مصير كل حي ، فهو يجد فيه راحته :

ان سئمت الحياة فارجع الى الار ض تنم آمنا من الاوصاب
تلك ام احنى عليك من الام التي خلفتك للاتعاب
لا تخف فالممات ليس بماح منك الا ما تشتكي من عذاب
كل ميت باق وان خالف العقـ ـل وان ما نص في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما ت ، فقد عاد سالما للتراب

ويكرر نفس المعنى في مقطوعة من بيتين

مقابر من ماتوا مواطن راحة فلا تك الر الهالكين جزوعا
وان تبك ميتا ضمه القبر فادخر لميت على قيد الحياة دموعا

حين كان اسماعيل صبري محافظا للاسكندرية ، حدث ان اراد الزعيم الوطني مصطفى كامل ان يلقي خطبة هناك ، فقد خلت السلطة لمنعه ، خشية قيام المظاهرات هناك ، فما كان من صبري الا ان قرر بانه مسؤول عن الامن ، فاقام الاجتماع على مسؤوليته .

كان اسماعيل صبري يحب جمال المرأة ، فارتفع بهذا الجمال الى درجة عالية من السمو الفكري ، حتى لكانه وقف امامها موقف الخاشع وغلفها بروحانية رفعها الى مقام عال قريب من السماء . انشد يقول في قصيدة نظمها لتترجم الى الفرنسية بغية نشرها في مجموعة مختارة من الشعر العربي :

يا لواء الحسن احزاب الهوى ايقظوا الفتنة في ظل اللواء
فرقتهم في الهوى ثاراتهم فاجمعي الامر وصوني الابرياء
ان هذا الحسن كالماء الذي فيه للانفس ري وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده دون بعض واعدلي بين الظماء
انت يم الحسن فيه ازدحمت سفن الآمال يزجيها الرجاء

ويستمر في هذه المعاني الرفيعة الى ان يختم القصيدة بقوله :

انت روحانية لا تدعي ان هذا الشكل من طين وماء
وانزعي من جسمك الثوب يبين للملا تكوين سكان السماء
وارى الدنيا جناحي ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

حقا ان « المعاني بعيدة عن ذكر النهود والقدود والفم والعناق ورقة الخصر وكثافة الارداف » كما جاء في وصف خليل مطران لتلك القصيدة عند نشرها في يونيو عام ١٩٠١ .. ولكم تحولت الآراء وتلون الذوق الشعري بعد ذلك بالحسيات وبالاوصاف المجسدة .. ومن غريب المصادفات ان يوم ٢١ مارس عام ١٩٢٣ وهو يوم وفاة اسماعيل باشا صبري يوافق يوم ميلاد شاعر معاصر هو « نزار قباني » الذي برع في وصف النساء ، وفساتينهن ونهودهن .. وقد برع في هذا اللون براعة خاصة . فرق شاسع بين شاعر وشاعر .. ولكل منهما رؤية نابعة عن مزاجه الشعري .

يقول الدكتور محمد صبري ، صاحب الشوقيات المجهولة ، بان شوقي بك عقب حادثة دنشواي ، ارسل الى « الجريدة الاسبوعية » دورا غنائيا وقعه باسم « وطني حزين » مع كلمة يقول فيها : « لنجعل شعارنا المشنقة ولنقدس المشنقة ، فهي سبب حياة امة » . اما الدور فكانت كلماته تقول :

يا حمامة دنشواي نوحي للسير جراي
تحت الظلام كلا ينام
الشنق حامي والضرب داير
فين المحامي منا فيش كلام

وغنى عبد الحي حلمي هذا الدور لشوقي في الحفلات الخاصة . كذلك كان الشأن مع اسماعيل صبري ، اذا الف هو الآخر دورا وطنيا ذاع بين الناس . وقد قيل انه ذهب الى استقبال البارودي باشا عقب عودته من المنفى في عام ١٩٠٠ للتسليم عليه ، فقال البارودي لاسماعيل صبري : « لماذا لم تعملوا دورا بمناسبة الاحتلال واحداث وادي النيل » فقال اسماعيل صبري : « نعمل يا باشا » . فرد البارودي : « وانت قاعد ! » فنظم في الحال اسماعيل صبري دور « عشنا وشفنا سنين ... » وسلمه لعبده الحامولي ، فسلم عبده بدوره الاغنية لمحمد عثمان لتلحينها . وغناه بعد ذلك سي عبده وكبار المغنيين .

غير انه تبين بعد البحث ان هذه الرواية تفتقر الى الاثبات وتنقصها الدقة كما يقول الدكتور محمد صبري . والواقعة الصحيحة في هذه الرواية ان الدور من نظم اسماعيل صبري ، وهو من اهم ادواره الغنائية ، وان خلا

الشهيد

عدت عليه عوادي الحرب ما فتئت ... تعذب الجسم بالنيران الوانا
اخنى عليه بارزاء مسددة ... كان للدهر ثارات بها دانا
وبات يشكو من التجريح مضجعه ... وكان قد ظن ان الجرح قد هانا
وظل يبعث من اعماقه شجنا ... من ذا يظن بان الموت قد حانا
وصافح الفجر بعد الليل مرتميا ... على الرمال فحيا الرمل شجعانا
وولول النجم في الظلماء منتحبا ... عل النجوم تزيد الثار نيرانا
كم ضاع منا من الشبان اشرفهم ... في موكب النصر ارواحا وابدانا
ونذكر الآن جرحانا وما خطرت ... بالفكر آونة والحس احيانا
يسري الجريح الى الغايات يلطمه ... موج الاماني فيمشي فيه حيرانا
ويدفع الموت عن اهداف عزته ... تبلى الدهور ولا تبلى به شانا
يبيت يستنشق الآمال عاطرة ... ويهمس العزم في الآذان قرآنا
وارحمة لشهيد بات مكرمة ... افنى الليالي نضالا ، ثم حرمانا
كم حطم العذر بلدانا مخلدة ... وكم اضاع رجالا ثم فرسانا
الله يعلم كم نسري بلوعتنا ... نبكي الشهيد بدمع بات هتانا
هل يذهب الدمع ارزاء مجمعة ... او هل يخفف اسواء واشجانا
او يجمع الصبر آمالا مبعثرة ... او يبعث النصر من بالامس قد كانا
حسب الشهيد بنصر قد اتاح له ... ذكرى الخلود فبات اليوم ريانا

عين شمس ـ مصر ... جميلة الملايلي

ديوانه منه . والثابت الآن ان هذا الدور قد نظمه في مناسبة سابقة وان عبده الحامولي غناه في ليلة ٢٨ نوفمبر ١٨٩٥ في حفل زواج سعد باشا زغلول . تقول كلمات الدور :

عشنا وشفنا سنين
ومن عاش يشوف العجب
شربنا الضنا والانين
جعلناه لروحنا طرب
وغيرنا تملك وصال
واحنا نصيبنا خيال
كنا العدل (٣ مرات) يا منصفين .

ونختتم دراستنا بالقول بان شاعرا مصريا يشترك مع اسماعيل باشا صبري في الاسم واللقب وقد ولد بعده باثنين وثلاثين سنة ؛ ونقصد به اسماعيل صبري الذي لقب نفسه (بابي اميمة) (١٨٨٦ ـ ١٩٥٣) والذي توفي في سنة ١٩٥٣ عن ٦٧ عاما . ويشترك ابو اميمة مع اسماعيل باشا صبري في ضروب كثيرة من الشعر الاجتماعي والغزلي والوصفي . فالاثنان وصفا الاهرام وصفا بديعا وللاثنين غزل رقيق . يقول ابو اميمة في ستريس او عذراء منف :

فاذا شدوت صرفت عن الم الهوى ... قلبا اسيرا حائرا ولهانا
ومنعت عن مضنى الغرام عذابه ... وكان خفق فؤاده ما كانا

وقد غنت له المطربة « اسمهان » قصيدة بعنوان « اين الليالي » . وله قصائد غزلية في غاية الرقة ، حتى لكانها تضاهي قصائد سميه ، نذكر منها :

خلونا ودارت بيننا نشوة الهوى ... وقد كنت اشكو هجرها وهي تسمع
اذاعت دموعي جبا تكن سرائري ... واعلن سقمي هول ما كنت اجزع
فقالت ويمناها تكفكف مدمعي : ... شهيد الهوى العذري لا يتوجع

أو قوله :

وقد خلونا وجو الحب راق لنا ... وراح عنا شديد الخوف والحذر
وبيننا دار كاس الحب تملؤه ... يد الطهارة في وشي من الزهر
تبادلت شكتانا بيننا غزلا ... ارق في لفظه من نسمة السحر
حتى اذا ما اشتد بي وجد الهيام بدا ... طيف العفاف ينصبح غير منتظر
فارتاح قلبي لنصح الطهر وانبسطت ... مني لمن فتنتني كف معتذر

واذا كانت قصائد اسماعيل صبري الكبير تميل الى المقطعات القصيرة والاقلال ، فان ابي اميمة على عكسه ، فان له قصائد في الكونيات والدين والزهد تبلغ النونية منها وهمزيته الكبرى نحو من الف بيت .

رحم الله اسماعيل باشا صبري في ذكراه الخمسين .

مصر الجديدة ... سمير وهبي



نسيم نصر

شموع متجولة

بقلم نسيم نصر

* * *

ـ الارض الخيرة تغطي جراحها بالمواسم .

ـ النحلة تموت جوعا ولا تنزل ضيفة على الذبابة .

ـ عير الغراب البلبل بضعف جناحيه واغبرار ريشه ، في حين كان البلبل يرسل شدوه قاعدة لفن الغناء .

ـ استطاع الثلج ان يموه بنصوع بياضه على كل العيون الا عين الشمس .

ـ عجبت لمن لا ياكل الا في آنية نظيفة ... ثم يقوم عن مائدته ليدفع الى الناس حروفا ملونة مسمومة !

ـ اغرب ما في ذئاب الناس انهم يعضون بالسنتهم !

ـ ما اوقح مستنقعا يختزن ماءه اعشاشا لطفيليات الامراض ، عندما يلوم جدولا على توزيع مائه نقيا تحت اشراف الشمس !

ـ قلت لابني : « انت لي ! » فاجابني : « هذا لسان حالي ! »

ـ البخل بالحق انبل وجوه الكرم .

ـ رات السلحفاة صبية يلعبون بريشات من جناحي نسر ، فادعت انها سقطت منها ...!

ـ نقطة الدم اغلى ما يصونه الحر ... وارخص ما يبذله ...

ـ العطاء الاصيل دفقة مطر ، لا تثمر الا في الارض الطيبة ..

ـ عندما تتنفس البنفسجة تخفي الخنفساء راسها.

ـ يبقى قلب الانسان خرابا الى ان تعمره التضحية.

ـ العين الجائعة الى الاطماع لا يشبعها غير التراب.

ـ بصير لا يرى وجه الحق احق بالشفقة من اعمى لا يبصر وجه الشمس .

ـ ابعد الناس عن حقيقة العظمة من قال انها جاءته بالوراثة .

ـ سكير لام العريشة لانها ادخلته المستشفى ... فوبخته لانه ادخلها الخمارة .

ـ عجبت من انسان يفتح نوافذ بيته للهواء والشمس ، ويترك نفسه تتعفن مقفلة !

ـ متى صار الانسان كأسا شفافة تتلون بلون ما تعيه فيها ؟!

ـ قلت لشجرة الغار : « لماذا جعلوا منك اكاليل النصر والعزة ؟ » فاجابت : « لانني اختزن في حباتي طيب دم الشهداء » .

ـ الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يفترس ، وهو متخم .

ـ قالوا للوردة : « انت ملكة الازهار » فلبست كل الالوان ... وحملت صولجان الشوك ...

ـ ما استطاعت الثعالب ان تنظر في وجه الاسد الا وهو سجين او في عجز لكثرة السنين .

ـ سالني دجال ان يقرأ لي كفي . فقلت له : « دعني اقرأ لك وجهك اولا ! »

ـ سالت عوسجة زيتونة : « من اين لك هذا الزيت النير الخير ؟ » فقالت : « من هذه الارض التي تجنين منها اشواكك » .

ـ قالوا للثعلب : « انت سيد المحتالين ومعلمهم » فاجاب : « باستثناء ثعالب الناس » .

ـ تعلم الامانة من الغصن الذي يحتضن ثمار اخيه دون ان يسرق منها شيئا .

ـ من الغبن والظلم ان تلاحق العدالة مفلسي المال، في حين لا يتعرض مفلسو الاخلاق لاية ملاحقة .

ـ ما حزن عاقل على ضائع اغلى من الشرف .

ـ اوكار الوشاية اشد خطرا على المجتمع من بيوت الدعارة وبؤر المخدر والمسكر .

ـ من لا يأو الى راحة ضميره، فليس له مأوى يرتاح فيه ، ولا صديق يطمئن اليه .

ـ قالت الحرباء لانسان عاب عليها تلونها : « تلونت حماية لنفسي ، وتلونت ، انت ، اعتداء على أخيك ! فأينا يفعل العيب ؟! »

ـ غيمة سوداء عبست في وجه الشمس وهددتها بعزل ضوئها عن الارض ...!

ترنيمة للحب والبراءة

ترنيمة غجرية احيت نداءات الطفوله
وتناثرت عبر الاثير وفي حنايانا الخجوله

واطل من خلف العصور على المعابر والهضاب
وعلى الصحارى السمر يا وطني الذي احترف العذاب
وجه .. حكاياه ارتمت في الليل تحتضن الغياب
كان احتمالا في الخواطر يمتطي فوضى الرغاب

الفارس العربي عاد
بروائه النسي عاد
ببراءة الصحراء عاد
بنقاء هاتيك المهاد
وانساب وعد الحب في عينيك رجعا لابتهال
وتدفق الحلم الجميل على ارتعاشات السؤال

غنيت حبك يا بلادي
غنيت حبات الرمال
غنيت فيك طفولتي
غنيت تكسير المحال

دمشق

سلافة العامري

ـ الارزة شجرة عملاقة لا ترضى حماتها اقزاما .

ـ تباركت يمين الزارع فانها تعقد بايمانها بين السماء والارض .

ـ تعلم من النملة صبرها واجتهادها ، ولا تتعلم عيشها في خلايا التراب !

ـ الحكم العادل كمبضع الجراح الماهر لا يمتد الى العضو السليم .

ـ الكبير في عين الحياة من كبر على الصغائر .

ـ اضمن وثائق التامين ثقة الإنسان بقوة ارادته .

ـ صديقك من فتح لك عقله قبل أن يفتح قلبه .

ـ رايت دجاجة تعطي من قلبها ، وانسانا يعطي من يده ، فاي العطاءين احق بالاعلان ؟ ان كان لا بد من الاعلان .

ـ عين الحاسد جمرة اول ما تحرق موضعها .

ـ دودة القز فيلسوفة النساك : منسكها حرير .. وتقواها جناحان لتطير ...

ـ المكابر انسان رهن عقله وضميره لعبودية الباطل.

ـ الطفل اللقيط رسالة كفر بالانسانية ارسلها والدان فاجران الى مجتمع مريض ... فكان الشارع بريدهما .

ـ صنارة الصياد اقدم شاهد برفق الانسان وصراحته .

ـ الايدي المتسولة سياط تلذع وجه المجتمع الوقح في عرض مخازيه .

ـ حروف القانون السنة حق صامت لا يرتفع صوته الا من أفواه المؤمنين بحقوق الانسان .

ـ اخف انواع العطش خطرا هو العطش الى الماء .

ـ لا يكون القلب دليلا يسير صاحبه بوحيه الا اذا نام العقل او مات .

ـ الظلم ظلمان : ظلم جبان تتهرب من مسؤوليته ، وظلم جريء تتحمل تبعاته .

ـ اعظم الهياكل قدسية هيكل الضمير ، لانه بناء الله لعبادة الحق .

نسيم نصر



جميل بركـــات

استراتيجية باب المندب

بقلم جميل بركات

***

اغلاق باب المندب في وجه الملاحة الاسرائيلية اثبت بالدليل القاطع بان تمسك اسرائيل بشرم الشيخ لا اهمية لـــه وغير وارد ، وان هذا « الشرم » سقط عسكريا كسقوط خط بارليف ولكن دون قتال .

ولهذا فواجب العرب ان يوجهوا ثقلهم لهذه المنطقة وان يحافظوا عليها بكل قوة ، فاهميتها لا تقل عن قنـــاة السويس ، وهي بالنسبة لصراعنا مع العدو تقف جنبــا الى جنب مع سلاح البترول ، فاي خلل يطرا عــــلى استعمال هذين السلاحين قد يؤدي بالامة العربية الـــى كارثة . فالواجب المقدس يحتم علينا بالرغم من الاختلاف في الاجتهاد ، ان تكون حذرين يقظين حفاظا على مصير امتنا واجيالها القادمة .

وما من شك بأن القراء قد ادركوا اهمية هــــذه المنطقة من الانباء المتواترة عن اغلاق باب المندب اثر حرب رمضان ، ولاجل اعطائهم صورة اوضح لا بد من ســـرد الحقائق التالية :

اولا : يبلغ عرض هذا المضيق من الساحل اليمني الى الساحل الافريقي في نقطتين متقابلتين حوالي سبعة عشر ميلا ، وتربض في مدخله جزيرة بركانية صغيرة تكاد ان تكون خالية من السكان ، وفيها عدد من المبانـــي القديمة اشبه بالحصون المنيعة ومنارة للسفن وصهريج ماء تركها الاستعمار جميعها وراءه بلا رجعة .

ويسمي العرب هذه الجزيرة «ميون » بينما يسميها الاوروبيون « بريم »، وقد سبق لي ان شاهدتها ، وهي تقسم المضيق الى قسمين غير متساويين ، القسم الممتد نحو الشاطىء اليمني لا يزيد عرضه عن اربعة اميــــال ويصلح للملاحة ، اما القسم المتجه نحو الشاطىء الافريقي فهو اكثر اتساعا ، ولكن الملاحة صعبة فيه بســـــبب الصخور والاطمية التي تعوقها .

ومن قبيل التذكير لا بد من سرد لمحة تاريخيـــة خاطفة عن هذه الجزيرة ، فقد احتلها البريطانيون عام ١٨٥٧م ، ولكنهم غادروها ثم عادوا اليها بعد عامين ثانية، وجعلوا منها قاعدة لتموين السفن بالوقود ، ولمراقبـــة البواخر غير البريطانية التي تمر منها ، شدة في الحرص على سلامة طريق الهند .

ومما تجدر الاشارة اليه ان ارتفاع هذه الجزيرة عن سطح البحر يبلغ خمسة وسبعين مترا ، ومن هــــذا الموقع يمكن لاية قوة عسكريـــــة تردفها بعض المدافع وزوارق الطوربيد ان تسيطر عليه سيطرة تامة وتغلقه.

ويحتضن هذا الجزء من المضيق ويشرف عليـــه الساحل اليمني الذي يسمى « الشيخ سعيد » وهـــو يرتفع عن سطح البحر بمقدار مائتي متر ، كما انه شديد الشبه بجبل طارق . ففي حالة شل حركة جزيرة ميون، لفتح المضيق بالقوة لاجل الملاحة الاسرائيلية ، فان ايـــة قوة عسكرية حسنة التدريب ، تستطيع من هذه المنطقة التحكم فيه وتعيد اغلاقه ، لا بل وتسيطر عليه مـــن الشاطىء للشاطىء..

وبعبارة اوضح فان ميون او بريم ، او سمهـــا ما شئت ، تعتبر خط الدفاع الاول لاغلاق هذا الممر الحيوي الهام ، يدعمه خط منيع ثان ، هو منطقة الشيخ سعيد.

ثانيا : كانت فرنسا قد ادركت خطورة الوجـــود البريطاني في ميون ، وحتى تثبت وجودها في هــــذه المنطقة ، اتفقت حينذاك مع سلطان « الشيخ سعيد » التابع للعثمانيين والذي كان غير راض عنهم ، ليتخلى عن حكم هذه المنطقة ويتنازل عنها مقابل الثمن ... فوقع عقدا بهذا التنازل يوم ١٤ اكتوبر عام ١٨٦٨ م. لـــدى القنصلية الفرنسية في عدن ، وهو مثبت في سجلاتها حتى اليوم . وقبل ان يجف مداد هذا العقد نسف الاتراك كافة المنشآت الفرنسية هناك ، ولكنهم اضطروا بدورهم لتوقيع اتفاقية تحافظ على الوضع الراهن ، غير انهم ما لبثوا ان نقضوها ، وعادوا واستولوا على منطقة الشيخ سعيد بعد انهيار الجمهورية الفرنسية الثانية ، وقـــد ذهبت جميع محاولات الفرنسيين عبثا لاعادة احتلالها .

ثالثا : خلال الحرب الايطالية العثمانية التي استولت

فيها ايطاليا على ليبيا واستعمرتها كان الاسطول الايطالي يطلق قنابل مدافعه على القوات التركية المرابطة في تلك المنطقة ليحول دون ارسال نجدات الى ليبيا !

رابعا : اثناء غزو « موسوليني » للحبشة ، طالبت الصحافة الفرنسية بالحاح من حكومتها ، باحتلال هـذه المنطقة ، التي تسيطر على الطرق البحرية للقـارات الثلاث ، آسيا ، وافريقيا ، واوروبا ، ولكن قـوات موسوليني كانت واقفة بالمرصاد ، فلم تقدم فرنسا على ذلك ، ورات من الحكمة ان توقع معاهدة صداقة مـع اليمن وتعترف بسيادته على منطقة الشيخ سعيد ، وكان ذلك في عام ١٩٣٥.

والطريف في الموضوع ان جزيرة ميون تابـعة لجمهورية اليمن الجنوبي الديمقراطية ، ومنطقة الشيـخ سعيد تابعة لدولة اليمن الشمالي ، فالاسطول الامريكي الذي اكثت الانباء تحركاته في المحيط الهندي ملوحـا بالقوة ، اذا ما اقدم على فتح هذا المضيق حربيا ، فانه يعتدي على دولتين عربيتين في آن واحد ، وهما عضوان في الجامعة العربية وهيئة الامم المتحدة ، واصحـاب السلطة في بلديهما . فاي اعتداء من هذا القبيل سيعرض سلامة العالم لحرب مواجهة نووية لا تبقي ولا تذر ، دون مبرر ، فالعالم يعيش في القرن العشرين الذي وقعت في نصفه الاول حربان عالميتان سببتا للبشرية الهلاك والدمار ، ناهيك بالحروب الموضعية التي تحدث هنـا وهناك ، وضحاياها عشرات الالوف من الانفس البريئة، تهدر دماؤها عبثا بسبب مطالبة الشـعوب الصغيرة بحريتها وسيادتها على اراضيها وثرواتها دون الحاجة الى اوصياء عليها من الدول الكبرى التي تملك في حوزتها اسلحة الموت ، والتي يطلقون عليها الاسلحة المتطورة . فقد استعملت هذه الاسلحة ضد الشعوب العربيةالمحيطة بالاراضي المحتلة من قبل اسرائيل ، فقتلت الابريـاء ودمرت ممتلكاتهم ، ولكنها لم تستطع ازالة هذه الشعوب من الوجود ، لانها اضعف من كرامة الانسان وارادتـه، ولان شرعة الغاب التي تتمثل بالهدم والابادة لا تنسجم مع وثيقة حقوق الانسان التي وقعتها دول الامم المتحدة على اراضي الولايات المتحدة الامريكية باللذات ، ولعـل حكومتها كانت في طليعة الموقعين ، وكانت لها الـيد الطولى في صياغة الميثاق !

فحقوق الانسان لا تقتصر على اليهود وحدهم بـل هي لسائر البشر دون تمييز فمتى يدرك الامريكيـون والصهاينة بان عرب فلسطين هم من البشر ، وتشملهم هذه الوثيقة ، وان مطالبهم واضحة وصريحة لا لبـس ولا غموض فيها ، وهي تقتصر على عودتهم لديارهم ، ليعيشوا على التراب الذي وجدوا فيه ، وليتنعموا بهواء الحرية في بلادهم ، شانهم في ذلك كشان سائرالمخلوقات، فهم مسالمون يكرهون الاعتداء ، بناؤون يمقتون الهدم ، ضمائرهم حية ، يؤمنون بالانسان ويقدسون حريتـه ، ويحافظون على كرامته ، ومن أجل هذه المبادىء الشريفة، النابعة من اعماق الوجدان ، تجدهم لا يستكينون للذل ، ولاينامون على ضيم ،يصرون على نيل حقوقهم المشروعة، ولو وقفت كل قوى الشر في مجابهتهم ، ولا بد انـهم واصلون اليها طال الطريق ام قصر ، بفضل جلدهـم وكفاحهم ، ومؤازرة اخوانهم العرب من المحيط الى الخليج، ولهذا دخل البترول المعركة ، واغلق باب المندب ، كمـا اغلقت قناة السويس من قبله ، لا للابتزاز او الاعتـداء، وانما لاجل تحقيق العدالة التي صيغت في وثيقة حقوق الانسـان ، المحفوظة في مقر هيئة الامم المتحدة ، بمدينة نيويورك ، كبرى مدن الولايات المتحدة الامريكية .

عمان ـ الاردن جميل بركات

خماسيات شعرية

يا من يعيب علـي انـي كافر
بحضارة وشى الخـداع ثيابها
بيني وبينك في الشعور مفاوز
غمر الضباب وهادها وهضابها
ان يجن من هذي الحضارةغفرنا
شهدا فانا قـد جنينا صابها
ولئن زهتبعض النحور بتبرها
فلقـد روينا بالدماء ترابهـا
والحر يعتبـر السجون مقابرا
دكناء مهمـا زخرفوا ابوابها

لا تعجبن اذا تبايـن موقفي
وتناقضت في ساعـة آرائـي
الحيرة الخرساء تنهش اضلعي
ما حيلتي بالحـيرة الخرساء
دجتالطريق ولا دليل، فكيفلا
يكبو بهاويـة القنوط رجائي
من كان في وضح الظهيرة تائها
هل يهتدي في الليلـة الليـلاء
يا صاحبي هيهات تبصر مقلة
تمشي وراء بصـيرة عميـاء

بوانس ايرس ـ الارجنتين زكي قنصل



غنيت حبك

*

يا صفو عمري ، ان اشجتك آلامي ... ما صوح الحب في جنات احلامي
جعلت عهدك فوق الحزن ، مؤتلقا ... وخفت ان يرتوي من جرحي الدامي
غنيته · حبك ، اذ غنيت ، فارتشفت ... براعم الورد منا عطرها النامي
بفيء هدبك شمت السحر مبتسما ... فرحت اطرح عند الهدب آثامي
يا طالما رفت الآمال في شفتي ... وطالما حنت النجوى لاقلامي
فان تشبث بي صمت ، وبرح بي ... همس الحرير ، لاحجامي واقدامي
فرب بسمة كبر لا اكتمها ... تسر حزني ، وتخفي شجو ايامي

يا صفو عمري ، هذا الهمس يقلقني ... فان عتبت ، فقد اوريت ايلامي
الست في خاطري ، مذ كنت ، اغنية ... بثثتها حلو الحاني وانغامي
« قد كنت تكتب حلو الشعر» قلت«فهل ... سلوت الهامك الماضي والهامي »
«قد كنت» قلت. فثار الوجدوارتعشت ... بقية الصبر في وجداني الظامي
قد كنت حقا !! وما زالت تؤرقني ... دنيا تحاول اذلالي وارغامي
غضضت طرفي عن غر يطاولني ... وما عثرت بنمام وشتام
وانت اعلم بي ، ان جار طاغية ... جعلت طغيانه نعلا لاقدامي
حبوت صحبي ودا غير منقطع ... ورحت اسلس غفراني لاخصامي
جاوزت احقاد حسادي ، فما التفتت ... عيني لما بذروا خلفي وقدامي

يا حلوة البوح في ثغر يرق جوى ... الوان حسنك اعيت كل رسام
كيف السلو ؟ وهل اسلو هوى عطرا ... لولاه لم اسل اوجاعي واسقامي
ان يأذن الصفو بالاحلام نرجعها ... فننتشي عبر ارواح واجسام
لسوف اذرو سموم العاصفات غدا ... وفوق هدبك القي عطر انسامي

فوزي عطوي



عبدالرحمن شلش

طه حسين نابغة عصره

بقلم عبدالرحمن شلش

•••

في شخصية الدكتور طه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣) تبدو صورة عصره، فقد اجتمعت في شخصيته خصائص هذا العصر من عناء واجتهاد ونضال. ولسنا نجد فيمن سبقوه او لحقوه بسنوات من اجتمعت فيه خصائص السعي الدائب الموصول، واجتياز كل العوائق والعقبات التي اعترضت طريقه.

لم يجتمع لكاتب، او أديب، او مفكر في العصر الحديث مثلما اجتمع لطه حسين سواء في حياته الريفية، أو حياته في الازهر، او الجامعة.

لقد عانى طه حسين كثيرا مع نفسه، ومع ابيه، ومع اهله، ومع زملائه، ومع معاصريه.

واستطاع ان يكسب للعربية افكارا عصرية، فابتدع فنا، وصاغ إدبا، وكشف منهجا واسلوبا لدراسة الفكر.

وطه حسين لذلك فريد بين كتاب عصره، ذلك لانه جمع النقائض التي مرت بها الامة، ولانه عايشها، وذاق حلوها ومرها، وعانى من الدراسة التقليدية سواء في الكتاب او في الازهر، كما تلمس «الجو العقلي» في وطنه وفي الخارج، وتدوق ما يمكن ان يسمى بالمنهج الفكري.

كان عصره حافلا بالتيارات الفكرية والوجدانية والسياسية المتلاطمة، ومع هذا شق طريقه وسط هذا البحر الهائج، وراح يصارع الامواج، فكان عناؤه «تجريبيا» لم يتوفر لكثير من معاصريه على هذه الصورة التي تجمع بين الازهر والسوربون.

لم يستقر طه حسين على نظرية معينة من قبل، او نظرة جاهزة مسبقة تعفيه من مشقة البحث، ولكنه عانى بنفسه مهمة البحث عما يعتقد انه الصواب، فكان صادقا مع نفسه، وكان هذا الصدق اساسا للصدق مع الاخرين.

ومن هنا، كان الصدق واحدة من اهم صفات طه حسين، فهو من اكثر كتابنا صدقا. كما انه اكثرهم حديثا عن نفسه وهواجسه، فكان من اوائل الكتاب العرب الذين مارسوا كتابة السيرة الذاتية.

ولعل كتابه «الايام» الذي يقع في ثلاثة اجزاء يعد واحدا من اعظم كتب السيرة في أدبنا العربي القديم والحديث. وقد ظهر الجزء الاول منه عام ١٩٢٩، والجزء الثاني عام ١٩٤٠، والجزء الثالث عام ١٩٧٢.

وهذا الكتاب يلقى الضوء على مقومات شخصية طه حسين، وعلى تكوينه النفسي والعقلي والاجتماعي منذ صغره. الى جانب انه يتناول تطور حياته الفكرية والاجتماعية والسياسية.

والى جانب الصدق مع النفس في شخصية طه حسين، نجد بعض الصفات الاخرى مثل: اخذه لنفسه بالشدة، وشكه في مقدرته وفي احكام الغير، وانصرافه عن الكذب، وخلقه المصاعب لنفسه، وكرهه للابواب المفتوحة، وايثاره الطرق الطوال.

وكل هذه الصفات صاحبت طه حسين في رحلته الشاقة من الشك الى اليقين.

كان معجزة عصره ان صح هذا القول، فهو نابغة ادبنا العربي الحديث، مما جعله يستحق لقب «عميد الادب» الذي ارتضى كل عربي منا ان يطلق عليه، تسليما له بانه يتفرد به دون سواه، لانه ليس بين ادباء عصره من اجتمعت له خصائص طه حسين صاحب الثقافة الواسعة والمؤلفات العظيمة، والدور الرائد في حياتنا الفكرية والادبية على امتداد اكثر من نصف قرن.

لقد تناول طه حسين في ادبه وفكره البعد الاجتماعي فعندما كان يدير الاحداث ويرسم الشخصيات ويحدد الزمان والمكان، كان يربط كل ذلك بالبعد الاجتماعي، فمنه كانت تستمد وجودها الحي وتطورها وصراعها.

ولعلّ فضل الدكتور طه حسين في مجال الدراسات التاريخية والادبية يعد فضلا كبيرا، اذ انه اخرجها الى طور حديث يتناسب مع ايقاع العصر وسنة التطور، بعد ان كانت ترسف في اغلال القديم، مما جعلنا نجدها بفضله لا تقل خصبا وامتاعا عن نظائرها في الاداب الاجنبية، ولا سيما الاداب الغربية. ولا نبالغ اذا قلنا

مسافر

مسافر وناقتي
تبحث عن بسمة ماء
لا شيء في حقيبتي
سوى قصائد الرثاء

امشي.. يقودني القمر
الى جزيرة الكروم
والقلب اضناه السفر
ومل رقصات النجوم

تلهث في دربي الرمال
تبلع زورقي الغريب
والشمس في كهف الظلال
تميل شوقا للمغيب

اشتاق كحقل صغير
لجدول عذب الغناء
لكي اتابع المسير
نحو مدينة الضياء

الرباط ـ المغرب — محمد علي الرباوي

ان الجهود العلمية والادبية في جامعاتنا العربية اليوم هي ثمرة من الثمار التي غرسها طه حسين في كافة حقول التعليم والادب والثقافة ..

بالفكر المستقل استطاع طه حسين ان يرسي في حياتنا العقلية والادبية دعائم الحرية باقوى ما تدل عليه هذه الكلمة ، واستطاع ـ ايضا ـ ان يبعث في حياتنا نزعة التجديد .

وتحضرني بعض مأثوراته ، حيث يقول :

ـ لا ادب الا ادب الفصحى ، والذين يستخدمون العامية والتعابير العامية ليسوا واقعيين ، وانما هم عاجزون .

الصحافة الان لا تقود الشعب ، وانما تجري وراءه.

ـ ليس من الضروري ان ينحط الادب ليصبح شعبيا ، وليس من الضروري ان يبقى الشعب حيث هو جاهلا غافلا يشقى بالخمول والخمود .

كان ابوه يريده ان يصبح عالما من علماء الازهر ، ولكنه اراد لنفسه ان يصبح اديبا ومفكرا ومعلما .. وفي هذا يروي الدكتور طه حسين في كتابه « الايام » على لسان ابيه : « اما في هذه المرة ، فستذهب الى القاهرة مع اخيك ، وستصبح مجاورا وستجتهد في طلب العلم. وانا ارجو ان اعيش حتى ارى اخاك قاضيا واراك من علماء الازهر ،قد جلست الى احد اعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدى ».

وقد تحققت هذ الحلقة البعيدة المدى لطه حسين، فصارت القاهرة مركزها وصار العلم محيطها ، ولكن ليس في المجال الذي تمناه له الوالد .

يقول الدكتور طه حسين في رده على سؤال حول الاضافة التي اضافها الفكر العربي الى الفكر العالمي: « اننا على الاقل قد استطعنا ان نقرأ الاداب الاوروبية، ونحاول تقليدها ، ثم لم نلبث ان تجاوزنا التقليد الى الابتكار ، ووطنا الادب العربي القديم : القصص ، والادب المسرحي ، والنقد ،وليس معنى هذا اننا نستطيع ان نستغني عن الاداب الاجنبية على اختلاف لغاتها ، فنحن نريد لادبنا العربي ان يكون حيا ، والادب الحي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة هو الادب الذي ياخذ ويعطي . وقد بدانا بالاخذ . ثم جعلنا الان نعطي ، وجعلت كتبنا تترجم الى اللغات المختلفة .»

لقد عشنا كتابات طه حسين واعماله ، وسنظل نعيشها ما حيينا .

كان اسلوبه كلاسيكيا يجمع بين البساطة والفخامة والوضوح .. فقد قال في مقدمة كتابه : « جنة الشوك »: « هذا لون من الوان القول لم يطرقه ادباؤنا المعاصرون ولكنه يلائم عصرنا ، فوقتنا قصير ، وعملنا كثير ، وهذه اللحظات التي يتاح لنا فيها شيء من الفراغ للاستمتاع بلذات الادب الخالص والفن الرفيع نادرة ».

اما صوته فكان قويا ، واضحا ، رنانا ، نفاذا ، مؤثرا .. ولا ابالغ اذا قلت انه كان كروان لغتنا العربية الجميلة ، ولئن كان قد كف عن التغريد ، فعلنا نجد السلوى بعد ذلك في تسجيلات الاذاعة .

حقا ، كان الدكتور طه حسين قمة عالية من قمم الفكر الانساني .. وكان هرما من اهرامات اعلام الادب العربي .. وكان بين ادباء ومفكري عصره يقف كقلعة شامخة في عالم الادب المعاصر .

وسوف يظل اسم طه حسين يتردد في حياتنا الادبية على مر العصور ، بعدد الكلمات التي تضمها مؤلفاته غير القليلة .

وبعد .. هذه كلمة قصيرة عن ادب وفكر طه حسين قائد الثورة الادبية والفكرية في حياتنا المعاصرة .

رحمه الله بقدر ما قدم من اعمال خالدة في تراثنا العربي والانساني في العالم .

القاهرة — عبدالرحمن شلش



محمود تيمور

قصتي مع محمود تيمور

بقلم السيد عبدالعزيز الجندي

● ● ●

عندما اريد ان اوفي استاذنا تيمور حقه ، او بعض حقه، فانني اجد نفسي عاجزا ، لان ما قدمه لي لا يستطيع اي قلم ، ولا تستطيع اي كلمات ان تلم به.

لان ما اعطاه لي فوق قدرة البشر ... او هكذا خيل الي ..

لقد عرفت تيمور بطريق الصدفة ، وكان ذلك منذ حوالي عشرين سنة عندما قرات له كتابه المعروف « ابو الهول يطير » وقد شد انتباهي ذلك الاهداء الذي كان ينعي به ابنه ... حلقت معه في عالم الخيال ..

ولاول مرة في حياتي بكيت من تأثري بكلمات مكتوبة .. حتى لكان ذلك الراحل المنعي كان ابني انا برغم انني لم اكن قد جاوزت الخامسة عشر من عمري حينذاك ..

ومن ذلك اليوم احببت محمود تيمور دون ان اراه.. اخذت ابحث وانقب عن اي كتاب او مقال له ولفترة طويلة كنت اهرع الى اهداء « ابو الهول يطير » كلما اصابني مكروه ... وكلما زاد حنيني الى البكاء ..

وتوالت الايام والسنون ، وشغلتني الحياة بمشاكلها وهمومها ، ولكني كنت احن للكتابة بين الحين والحين.. احاول ان اعبر عما بداخلي في محاولات صبيانية ..

وفي عام ١٩٧٠ قرات بطريق الصدفة ايضا اعلانا من « نادي القصة » بموعد المسابقة وشروطها . في ذلك اليوم ، اشتاقت نفسي للكتابة وتملكتني رغبة ملحة للاشتراك في تلك المسابقة ..

وفعلا تقدمت بقصتين قصيرتين ، ومر اكثر من عام لم احاول فيه ان اسأل عن نتيجة المسابقة .. وصراحة توقعت عدم الفوز واتهمت اعضاء اللجنة بيني وبين نفسي بالتحيز والمحسوبية ، وقررت عدم العودة لهذه المسابقة مرة اخرى .

ولكنني فوجئت في يوم من الايام بخطاب مسجل من « نادي القصة » يهنئني لفوز قصتي ، ويدعونني للاشتراك في حفل الفائزين وتسلم الجائزة . ولم اشعر بالفرحة في حياتي كلها كما شعرت بها حينذاك .

وعندما توجهت الى « نادي القصة » واطلعت على تقديرات اعضاء اللجنة ، وكان احد اعضائها استاذنا الراحل محمود تيمور ، وجدت تقديره لقصتي (تسع درجات من عشر) وبجوار الدرجة تعليق رقيق اثلج صدري ، وكانت تلك هي اعلا درجه اعطاها تيمور .

ووجدت لزاما علي أن اشكره . وكان ذلك في خطاب ارسلته على عنوان النادي ، وطال انتظاري ولم يصلني رده ، حتى ظننت انني كنت مخطئا حين فكرت انه من الممكن ان يكلف رجل عظيم كتيمور نفسه مشقة الكتابة والرد على انسان لا يعرفه ، ولا تعرفه الاوساط الادبية .

وخاب ظني مرة اخرى ، عندما جاءني اول خطاب منه على وحدتي ـ بالقوات المسلحة ـ يفيض بشرا وحبا، وتقديرا ، واعتذارا لتأخره حيث كان في سويسرا ..

وبعد ايام حمل الي البريد احدث مؤلفاته « قال الراوي » وعليه اهداء بخط يده بـ (عزيزي الاديب القاص .....).

ولم تنقطع صلة المراسلة بيني وبين سيادته بعد ذلك ، وفي كل مرة كان رحمه الله حريصا على ان يهديني كتابا ، او اثنين .. حتى دون ان اطلب منه ذلك ..

وفي العام الماضي ارسلت له خطابا ، وجاءني رده من الاسكندرية ومعه كتابان ، ولاول مرة منذ ان عرفته يخبرني بمرضه ، ويشكو من هذا المرض بصورة اعتذار لاختصار خطابه على غير عادته معي ..

اخبرني انه لم يجد معه من يملي عليه رد خطابي فكتبه بيده .. وهو يعاني من المرض ، ورايت ذلك واضحا ملموسا في كلماته المرتعشة ..

بكيت في ذلك اليوم ، وابتهلت الى الله عز وجل عقب كل صلاة بعد ذلك ان يمن عليه بالشفاء .. ويهبه الصحة من اجلي ، ومن اجل المئات غيري بل ومن اجل مصر ..

اذكر انني (دردشت) معه في خطاب مرة وقلت له « انني اريد ان ازور مكتبتك ، واسبح فيها وحدي بلا دخيل .. بشرط ان تكون انت معي لتنتشلني من بين امواجها اذا اشرفت على الغرق ».

وظلت هذه الدعابة في ذاكرته شهورا طويلة ، حتى قبل سفره الاخير الى سويسرا بايام ... عندما كنت في

الى وردة القلب

★

يـــا وردة بالعين تقطف
لم الق عمري منك الطف
هاتي لـــي الثغر المعنبر
والمبرعم والمـــفوف
لازقـه قبـلا فاشفـي
القلب منـه وهو معنف
يا وردتي القمراء كـم
اني احبـك انت اعرف
والله لـم امح حياتي
يا حياتي.. منك اظرف

زحلة ـ لبنان   رياض المعلوف

« نادي القصة » مع الاخ الاديب رستم كيلاني ، كـان حديثنا كله حول صحة استاذنا تيمور ، واحواله ونشاطه، وسفره ايضا واذا بهاتف النادي يدق ، واذا بوجه الاخ (رستم) يفيض بشرا وهو يشير لي بيده اثناء حديثه (بالتليفون) بان المتحدث هو استاذنا تيمور .

وقبل ان يكمل حديثه قال له عبر الاسلاك «سأترك السماعة الان لاحد احبابك » واعطاني السماعة .. فاخذت اسال عن صحته واحواله .. واعد وادعو بالخير .. ثم شكرته على الكتابين اللذين ارسلهما لي مع الاخ رستم كيلاني .

ودون ان اذكر له اسمي .. سمعته يقول بصوت كله بشر وترحيب : « اذا انت السيـد عبد العزيز الجنـدي ..» ولم يترك لي فرصة للكلام ، ولكنه ظل يتحدث معي طويلا عبر لي بشوقه .. وحبه ، وتقديره، وترحيبه لي في بيته في اي وقت اشاء .. وعندما سألته عما اذا كان خطابي الاخير قد وصله .. اذا به يقول ضاحكا « وصلني خطابك .. وعندما تحضر سأقفل عليك باب المكتبة لتعوم فيها كما تشاء ، ولا تنسى ان تحضر معك احد الحمالين ليحمل لك ما تريده منها».

ولا ادري في ذلك اليوم ، لماذا تذكرت ابي وامي.. وكل عزيز لدي ممن توفاهم الله .. اغلب الظن انني كنت اقارن بين كل هؤلاء قبل رحيلهم ، وبين هذا الرجل العظيم الذي رجحت كفته من هؤلاء جميعا ..

وسافر تيمور .. وكنت ابحث دائما عن اي خبر عن صحته في اي جريدة او مجلة ومن اي انسان من احبائه ..

ولم استطع صبرا فعزمت ان اعرف عنوانه في سويسرا لاطمئن عليه من هناك .

وفي الصباح .. استيقظت مبكرا على غير العادة، فاذا بي اسمع من المذياع الذي نسيته مفتوحا بجواري قبل نومي كلمات تقول « محمود تيمورمات في سويسرا».

كان الصوت انثويا رخيما .. فاذا به يصل الى اذني عند سماع هذه الجملة كقصف الرعد ..

واذا بي انتفض من نومي واقفا فزعا .. انتظرت اية تفصيلات من (الراديو) ولكن المذيعة لم تزد على ذلك شيئا ..

وعندما احسست بالدموع تنهمر من عيني ،قمت وذهبت الى حجرة اخرى ، لكي لا يرى اطفالي دموعي ، وظللت ابكي ، وانتحب ، واتشنج ..

وفي وسط تلك الانفعالات تراءى لي من بعيد بصيص من امل .. فقلت في نفسي (قد يكون ما سمعته خطأ .. ربما تكون الجملة التي سمعتها هي محمود تيمور عاد من سويسرا) كنت كالغريق الذي يبحث عن قشة يتشبث بها .

ولكن .. ما قدر الله قد كان ..

عزيزي .. واستاذي.. ووالدي تيمور ..

لقد مات ابن لك في نفس المدينة التي لحقت به فيها ، وما زلت اذكر كلماتك المأثورة في احدى كتبك لابنك الراحل :

« يا بني .. انني ازمع السفر ، ولا تسرية عن النفس ، ولا اشباعا لفضول ، ولكن لارافق شخصا عزيز المكانة في قلبينا ، يلتمس الشفاء في تلك البلاد القاسية ، أما كان احرى ان تكون انت مكاني .. نزعي هذا العزيز في غربته وتدعني مكانك اتوسد الثرى عنك.. قسما يا بني ما كنت لاطلب من الله أمنية أجل من تلك. ولكن الله يسير الاقدار وفق مشيئته التي تسلم لها القيادة .. وان كانت عقولنا القاصرة تعيا عن ادراك ما في هذه الاقدار من مرمى وما لها من مغزى ..» .

انني اقولها لك الان « ليتني مكانك اتوسد الثرى عنك » .

قد لا يصدق الناس ذلك .. لانهم ما زالوا في عالم الفنـاء ..

ولكنني اوجهها لك انت .. بعد ان تركتنا الى دار البقاء حيث لا غش .. ولا ظلم .. ولا رياء ..

ساظل اشمك طيبا من كتبك ورسائلك التي ستحتل ركنا خاصا في مكتبتي المتواضعة ..

اما صورتك .. فستظل ماثلة في سويداء قلبي تنبض معه بالحياة ما دام ينبض بالحياة ..

وساذكرك يا تيمور ما حييت .. واسال الله من له ملكوت السموات والارض ان يتغمدك برحمته .. ويدخلك فسيح جناته .. وان يجزيك عنا خير الجزاء..

كما اساله جل شانه ان يلهمنا جميعا الصبر والسلوان .. انه سميع قريب مجيب الدعاء..

القاهرة   السيد عبدالعزيز الجندي

شاهدت باب حديقة المنزل، المصنوع من بضع صفائح خفيفة مركبة على شبكة من العوارض الخشبية ، يرتطم بمسنده ، وكان الهواء، الذي يداعب اوراق الشجر لا يني يرده الى الخلف ، فيحدث صريرا منتظما، كما شاهدت الوصلة التي تربط الباب مقطوعة .

وفيما كنت احاول التقاط الوصلة، سمعت ما يشبه الهمس والكلام الناعم ، اقتربت من الجدار الفاصل بيننا وبين الجيران الذين تكن لهم محبة ، فسمعت صوتا يقول :

ـ احبك حتى الموت يا فائز !

لم اسمع اي تعليق من فائز على هذا التصريح ، وانما بدا لي ان صوتا يشبه القبلة ، انبعث عوضا عن ذلك، صعدت ، في حذر ، على كلاليب باب الحديقة المائل ، كما يفعل اخوتي الصغار حينما يطلون على بيت الجيران اثناء لهوهم ، فوقعت عيناي على مشهد يشبه لقطة من فيلم روميو وجولييت ، اثناء لقائهما على سور القصر .

كان فائز هذا ، ممتدا على سور الحديقة ، وشعره يخفي كافة انحاء وجهه ، بينما كانت ابنة الجيران، التي لم يظهر منها الا رأسها ، واقفة من الخلف ، على شيء مرتفع ، ووجهها النضر قبالة وجهه . قال لها:

ـ وانا احبك ايضا حتى الموت !

ـ متى نتصور سوية ؟

ـ غدا ، كما قلت .

وسكنت المحادثة قليلا ، ثم سمعنها تقول :

ـ وهل ستزورنا اختك ، مساء الغد ؟

ـ اجل ، وستتعرف عليك وعلى والدتك .

اخذ قلبي يخفق بشدة ، كما شعرت بانني لو اطلت في وقفتي ، فان اعصابي ستنهار ، وحدثت ، اثناء نزولي الى الارض ، جلبة القت الرعب في قلب فائز ، فشاهدته يقفز على الارض ويولى الادبار ، وكانه يريد النجاة بحياته، وكان قد اتى على دراجة نارية فشغلها واخذ يشق بها عباب الهواء، ويتوارى في الظلام .

ناديت من خلف الجدار ، بصوت خفيض :

ـ شكرية ! شكرية !

ثم صعدت برميلا عتيقا ، ظهر فيما بعد انه مرتكز على حجيرات غير متماسكة وبعض قطع من الدف. فرايت شكرية ترتد نحوي ، في جراة غير متوقعة ، وتقول لي :

ـ ماذا تريد ؟

قلت :

ـ أانت التي كنت تقولين لفائز، انني احبك حتى الموت ؟

ـ نعم ، وماذا في ذلك ؟!



بقلم عبد الرحمن البيك

ـ اولم تقوليها لي قبله يا شكرية ؟!.. شكرية، اريد ان اعرف، اتحبينني ام لا ؟

ـ لا !

ـ ولم ؟

ـ لان كل شيء لم يعد متجانسا بيننا ، فعندك صفات لم اعد استحبها !

ـ مثل اي شيء ؟

اجابت بعد تردد :

ـ مثل اسمك !!

ـ وما الفرق بالاسماء ؟ هل انت



صغيرة العقل ؟!

ـ قل لي ، ما هو معنى «بكري»؟

ـ مجرد اسم قديم .

ـ هذا .. يكفي .

ـ ثم ، ماذا غير ذلك ؟

ـ غير ذلك ؟ انت تحلق حلاقة قروية غير صالحة لشيء.

ـ وما علاقة الحلاقة بالحب ؟ هل الحب مقصور على الي الشعور المسدلة حتى اعناقهم ؟

ـ ان شيئا ما ، بدأ يجعلني اشعر ان هناك صلة بين الحب ، والمظاهر العصرية !

ـ انت مخطئة ، فالحب قديم ، ولا يتغير بتغير المظاهر .

ـ انت تريد ان تقول ، بان هناك حبا على الطريقة القديمة ، لتبرير طريقتك في هذا الحب الذي تظهره لي ، والذي لا اشعر بوجوده.

ـ شكرية ... ماذا دهاك ؟ يوم امس ، كنت عندنا تلعبين مع اخوتي الصغار ، في باحة الجنينة .

ـ هذا صحيح ، ولكنني كنت اتحين الفرصة لمصارحتك .

ـ اذن ، ماذا ترين ان نفعل ؟.. هناك هدايا واشياء قدمناها اليك بمناسبة خطوبتي لك .

ـ ساطلب من والدي اعادتها اليك وينتهي الموضوع .

ـ وماذا عن قطع الاقمشة التي احضرتها اليك من بيروت ، وقصصتها ؟

ـ استهلكت ، ولم يعد بالامكان اعادتها !

ـ لا ... فانتم ملزمون بتعويض قيمتها لنا ، وانا الفت نظرك الى ضرورة اعادة النعال البلاستيكية التي وزعتها على شقيقاتك وبناتهن.

ـ الى هذا الحد انت تدقق معنا؟

ـ وما الذي يمنعني من ذلك ؟ هل نسيت انك دققت في اسمي فلم يعجبك ، وفي طراز حلاقتي فلم يرق لك ؟!

ـ يا لك من شاب تسأل عن مصير هدايا تافهة ، ولا تحس بالفاجعة

الزعيم

ان الزعيم هو الفادي رعيته ... بالروح ، لا بالبيان الفذ ، والخطب
ان الزعيم هو الباني معاقله ... بساعد ، ليس يشكو وطاة النصب
والساهر الليل ، يرعى فيه امته ... وليس يقعد عن سعي وعن داب
والباسط الكف ، حتى لا يجوع فتى ... وان طوى ليله في قبضة السغب
واللابس الحلم فضفاضا ، تخر له ... شم الجباه خشوعا مسبل الهدب
والمالك اللب ، ان خطب دهى وطمى ... فليس يغرق في بحر من الريب
يصرف الامر في حزم ، وفي ثقة ... بالنفس ، جلت عن الاذعان للنوب

محمد العدناني

التي انتهى اليها هذا الحب الذي تتصوره بطريقتك الخاصة !

– ان لتلك الهدايا قيمة ، اريد استردادها فورا ، ولو امكنني لطالبتك بقيمة البطيخ الاحمر الذي اهديتكم اياه ، بمناسبة نجاح شقيقك ماهر . . . .

– هذا برهان على ان الحب عندك قشرة رقيقة !

– انت التي جعلته كذلك .

– انت ، كنت ستعجز عن دفع قيمة « الاملاك » والمهر !

– من قال ذلك ؟ لقد اصبح لدي في صندوق الدكان وفر كبير .

– صندوق الدكان !! لقد كان اتفاقنا على الزواج غلطة .

– اعتقد ان فائزا ، صاحب الدراجة النارية ، يملك القدرة على دفع المهر الذي تنوهين عنه ؟ .

– ان المهر عند فائز ، هو قلبه .

– شكرية ، انت تعلمين كم ابذل من جهد واعاني من مشقة ، من اجل تثبيت اقدامي في السوق ، ومن اجل زيادة وفر صندوق الدكان وعلى كل ، فانا بعد نجاحك ، ان شاء الله ، في « البكالوريا » مباشرة سوف اتمكن من دفع قيمة الاملاك والمهر .

– لم يبق على الفحص ، سوى شهر واحد ، كما تعلم .

– اتمنى ان اقرا اسمك في الجريدة .

– اسمع يا بكري ، انت اصبحت بعد وفاة والدك مسؤولا عن اخوتك وعن الدكان . . . لذلك فانه لم يعد باستطاعتك ان تتنصل من المسؤولية ، ولو فعلت لتسببت في تحطيم حياة اخوتك الصغار الذين يحتاجون لرعايتك .

– سامحك الله ، لقد تصورت ان تعمق وفاة والدي الحب في قلبك ، فتصبحين عونا لي في هذه الحياة . ولكنك ، ويا للاسف ، تخاذلت واخترت السلامة ، لما فيه مصلحة نفسك ، ان ما تسيرين على هديه يا شكرية ليس هو الحب ، وانما هو شيء آخر .

– لقد تغير كل شيء .

ثم سكتت قليلا ، واضافت :

– وانتهى كل شيء .

– ان الظروف هي التي اختارت لي هذا الطريق ، ليس علي من ذنب ، فانت تتابعين دراستك في اطمئنان ، بينما انا اشق طريقي في هذه الحياة ، في خوف ووجل .

– شيء يدعو للاسف !

توقعت من شكرية ، ذات الاسم الجميل ، ان تذرف حفنة من دموع ، تكريما لهذا الشيء الذي بدا لها انه لم يكن حبا يربط بيننا ، ولكنها لم تفعل ، بل اكتفت بان اطرقت براسها قليلا ، ثم قفلت راجعة بعد ان تناولت كتابا ، كانت تتظاهر بالمطالعة فيه تحت ضوء معلق في دالية العنب ، حينما صفر لها فائز بعد منتصف تلك الليلة .

في تلك الاثناء ، اخذ البرميل العتيق الذي كان مرتكزا على حجيرات غير متماسكة وبضع قطع من الدف ، يهتز ، فهويت على الارض ، فوق ساعدي التي احسست لاول وهلة انها انكسرت .

حملت نفسي الى الغرفة المعتمة التي خرجت منها لاحكم غلق باب الجنينة ، ثم اندسست في فراشي ، اداري الالام المختلفة التي اخذت تجتاحني . . . راقبت السماء من خلال النافذة ، فاذا ضوء القمر ينعكس على اوراق الشجر وعلى كل شيء في الحديقة وحتى على الجدار الذي يفصل بيننا وبين بيت الجيران الذين نكن لهم كل محبة .

حلب — عبدالرحمن البيك